اقرأ

يحيى حقي

قنديل أمّ هاشم

دار المعارف بمصر

٥

قنديل أمّ هاشم

يحيى حقي

قنديل أم هاشم

اقرأ ١٨

دار المعارف بمصر

اقرأ ١٨ – الطبعة الثالثة

ملتزم الطبع والنشر : دار المعارف بمصر – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج.ع.م

« قنديل أم هاشم »

١

كان جدى الشيخ رجب عبد الله إذا قدم القاهرة وهو صبي مع رجال الأسرة ونسائها للتبرك بزيارة أهل البيت ، دفعه أبوه إذا أشرفوا على مدخل مسجد السيدة زينب — وغريزة التقليد تغنى عن الدفع — فيهوى معهم على عتبته الرخامية يرشقها بقبلاته ، وأقدام الداخلين والخارجين تكاد تصدم رأسه . وإذا شاهد فعلتهم أحد رجال الدين المتعالمين أشاح بوجهه ناقماً على الزمن ، مستعيذاً بالله من البدع والشرك والجهالة . أما أغلبية الشعب فتبسم لسذاجة هؤلاء القرويين — ورائحة اللبن والطين والحلبة تفوح من ثيابهم — وتفهم ما فى قلوبهم من حرارة الشوق والتبجيل ، لا يجدون وسيلة للتعبير عن عواطفهم إلا ما يفعلون : والأعمال بالنيات . وهاجر جدى — وهو شاب — إلى القاهرة سعياً للرزق ، فلا عجب إن اختار لإقامته أقرب

المساكن بجامعه المحبب . وهكذا استقر بمنزل للأوقاف قديم ، يواجه ميضأة المسجد الخلفية ، فى الحارة التى كانت تسمَّى (حارة الميضة). « كانت »، لأن معول مصلحة التنظيم الهدام أتى عليها فيما أتى عليه من معالم القاهرة . طاش المعول وسلمت للميدان روحه ، إنما يوفّق فى المحو والإفناء حين تكون ضحاياه من حجارة وطوب ! ثم فتح جدى متجراً للغلال فى الميدان أيضاً . وهكذا عاشت الأسرة فى ركاب «الست» وفى حماها : أعياد «الست» أعيادنا ، ومواسمها مواسمنا ، ومؤذن المسجد ساعتنا .

اتسع المتجر وبورك لجدى فيه — وهذا من كرامات أم هاشم — فما كاد يرى ابنه الأكبر يتم دراسته فى الكتاب حتى جذبه إلى تجارته ليستعين به ، ، وأما ابنه الثانى فقد دخل الأزهر ، واضطرب فيه سنوات وأخفق ، ثم عاد لبلدتنا ليكون فقيهها ومأذونها . بقى الابن الأصغر — عمى إسماعيل — آخر العنقود ، يهيئه القدر واتساع رزق أبيه لمستقبل أبهى وأعطر . لعله خشى فى مبدإ الأمر ، عندما أجبره أبوه على حفظ القرآن ، أن يدفع به إلى الأزهر ، لأنه يرى صبية الميدان تلاحق الفتية المعممين بهذا الهتاف البذىء :

ـ شد العمة شد ، تحت العمة قرد . . . . . .

ولكن الشيخ رجب سلمه ، بقلب مفعم بالآمال ، إلى المدارس الأميرية ، وعندئذ أعانته تربيته الدينية وأصله القروى ، فسرعان ما امتاز بالأدب والاتزان وتوقير معلميه ، مع حشمة وكبير صبر . إن حرم التأنق لم تفته النظافة . وهو فوق ذلك أكثر رجولة وأقوم لساناً وأفصح نطقاً من زملائه (المدلعين) أولاد الأفندية المبتلين بالعجمة وعجز البيان . فما لبث أن بذ الأقران ، وتلألأت على سيمائه نجابة لا تخطئها العين ، فتعلقت به آمال أسرته .

أصبح ، وهو لم يزل صبياً ، لا ينادى إلا بـ (سى إسماعيل) أو إسماعيل أفندى ، ولا يعامل إلا معاملة الرجال . له أطيب ما فى الطعام والفاكهة .

إذا جلس للمذاكرة خفت صوت الأب ، وهو يتلو أوراده ، إلى همس يكاد يكون ذوب حنان مرتعش ، ومشت الأم على أطراف أصابعها ، وحتى فاطمة النبوية ـ بنت عمه ، اليتيمة أباً وأماً ـ تعلمت كيف تكف عن ثرثرتها وتسكن أمامه فى جلستها صامتة كأنها أمة وهو سيدها . تعودت أن تسهر

معه كأن الدرس درسها ، تتطلع إليه بعينيها المريضتين المحمرتى الأجفان ، وأصابعها تعمل فى حركة متصلة لا تنقطع فى بعض أشغال (التريكو) . من ذا الذى يقول لإسماعيل : تنبه إلى هاتين اليدين كيف دبت فيهما خلسة حياة غريبة ، وحساسية يقظة ، ولمس متعرف ؟ ألا تفهم ؟ ألا تفطن إلى أن دليل اقتراب عاهة العمى فى السليم هو أن تبدأ يده فى الإبصار ؟

— قومى نامى يا فاطمة .

— لسه بدرى ما جاليش نوم .

بين حين وآخر تحيل دمعة مترقرقة شخصه إلى شبح مبهم ، فتمسحها بطرف كمها وتعود إلى تطلعها . الحكمة عندها تتمثل فى كلامه إذا نطق .

يا لله ! كيف تحوى الكتب كل هذه الأسرار والألغاز ؟ وكيف يقوى اللسان على الرطانة بلغة الأعاجم ؟ وكلما كبر فى نظرها انكمشت أمامه وتضاءلت . قد يعلق بصره بضفيرتيها فيتريث ويبتسم. هؤلاء الفتيات ! لو يعلمن كم هى فارغة رؤوسهن ! ! إذا أوى إلى فراشه فعندئذ ، وعندئذ حسب ، تشعر الأسرة

أن يومها قد انقضى ، وتبدأ تفكر فيما يلزمه فى الغد . كل حياتها وحركاتها وقف على توفير راحته . جيل يفنى نفسه لينشأ فرد واحد من ذريته . محبة وصلت من قوتها إلى عنفوان الغريزة الحيوانية . الدجاجة القلقة ذات النظرة المتجسسة الحذرة ترقد على بيضها مشلولة الحركة ذليلة العين ، كأنها راهبة تصلى . . . هل هى هبات من فيض كرم ؟ أم جزية جبار مستبد ، إرادته حديد . له فى كل عنق طوق ، وفى كل ساق قيد ؟ تعلق هذه الأسرة بولدها ، تعلق مسلوب الحرية والإرادة ! فأين بربك جماله ؟ جواب هذا السؤال عند قلبى . فما من مرة تمثلت فيها هذه الأيام البعيدة إلا وجدته يخفق بذكراها ، ويبدو لى وجه جدى الشيخ رجب وحواليه هالة من وضاءة ونور . أما جدتى — الست عديلة ، بسذاجتها وطيبتها ، فمن السخف أن يقال إنها من البشر ، وإلا فكيف إذاً تكون الملائكة ! ما أبشع الدنيا وأبغضها لو خلت من مثل تسليمها وإيمانها .

٢

سنة بعد سنة وإسماعيل يفوز بالأولية ، فإذا أعلنت النتيجة

دارت أكواب الشربات على الجيران ، بل ربما شاركتهم المارة أيضاً ، وزغردت (ماشالله) بائعة الطعمية والبصارة ، وفاز الأسطى حسن – الحلاق ودكتور الحى – بحلوانه المعلوم ، وأطلقت الست عديلة بخورها وقامت بوفاء نذرها لأم هاشم .
فهذه الأرغفة تعد وتملأ بالفول النابت وتخرج بها أم محمد تحملها فى مقطف على رأسها : ما تهل فى الميدان حتى تختطف الأرغفة ، ويختفى المقطف ، وتطير ملاءتها ، وترجع خجلة تتعثر فى أذيالها غاضبة ضاحكة من جشع شحاذى السيدة ، وتصير حادثتها فكاهة الأسرة بضعة أيام يتندرون بها .

وكذلك نشأ إسماعيل فى حراسة الله ثم أم هاشم . حياته لا تخرج عن الحى والميدان ، أقصى نزهته أن يخرج إلى المنيل ليسير بجانب النهر أو يقف على الكوبرى . إذا أقبل المساء وزالت حدة الشمس وانقلبت الخطوط والانعكاسات إلى انحناءات وأوهام ، أفاق الميدان إلى نفسه وتخلص من الزوار والغرباء . إذا أصخت السمع وكنت نقى الضمير فطنت إلى تنفس خفى عميق يجوب الميدان ، لعله سيدى العتريس بواب الست – أليس اسمه من أسماء الخدم ؟ – لعله فى مقصورته ينفض يديه وثيابه

من عمل النهار ،ويجلس يتنفس الصعداء . فلو قيض لك أن تسمع هذا الشهيق والزفير ، فانظر عندئذ إلى القبة . لألاءٌ من نور يطوّف بها ، يضعف ويقوى كومضات مصباح يلاعبه الهواء . هذا هو قنديل أم هاشم المعلق فوق المقام . هيهات للجدران أن تحجب أضواءه . يمتلىء الميدان من جديد شيئاً فشيئاً . أشباح صفر الوجوه منهوكة القوى ، ذابلة الأعين ، يلبس كل منهم ما قدر عليه ، أو إن شئت: فما وقعت عليه يده من شيء فهو لابسه . نداءات الباعة كلها نغم حزين .

— حراتى يا فول .

— حلّى وع النبى صلى .

— لوبيه يا فجل لوبيه .

— المسواك سنة عن رسول الله .

ما هذا الظلم الخفى الذى يشكون منه ؟ وما هذا العبء الذى يجثم على الصدور جميعها ؟ ومع ذلك فعلى الوجوه كلها نوع من الرضا والقناعة . ما أسهل ما ينسون ! تتناول أيد كثيرة قروشاً وملاليم قليلة . ليس هنا قانون ومعيار وسعر ، بل عرف وخاطر وفصال ، وزيادة فى الكيل أو طبة فى الميزان . وقد

يكون الكيل مدلساً والميزان مغشوشاً ، كله بالبركة . صفوف تستند إلى جدار الجامع جالسة على الأرض ، وبعضهم يتوسد الرصيف . خليط من رجال ونساء وأطفال ، لا تدرى من أين جاءوا ولا كيف سيختفون . ثمار سقطت من شجرة الحياة فتعفنت فى كنفها . هنا مدرسة الشحاذين . حامل كيس اللقم ، يثقل الحمل ظهره ينادى :

– لقمة واحدة لله يا فاعلين الثواب ، جاعان .

والشابة التى تنبت فجأة وسط الحارة عارية أو شبه عارية :

– يا للى تكسى الوليه يا مسلم ، ربنا ما يفضح لك وليه !

صوتها الصارخ يجذب الوجوه للنوافذ ، وعيناها الساحرتان تستهويان المطلات . فتمطر عليها أكوام من الخرق ورث الثياب . فى لحظة واحدة تذوب وتختفى ، فلا تدرى أطارت ، أم ابتلعتها الأرض فغارت .

وهذا بائع الدقة الأعمى الذى لا يبيعك إلا إذا بدأته السلام ، وأقرأك وراءه الصيغة الشرعية للبيع والشراء .

ينقضى النهار فيودع كرش الطرشجى بقية براميله ، وتترك أقدام الخراط عملها اليومى وأدواتها ، لتعود بصاحبها إلى الدار . لايزال الترام

هنا وحشاً مفترساً له فى كل يوم ضحية غريرة . يتقدم المساء ، ينعشه نسيم ذو دلال . تسمع من القهاوى ضحكات غضة وأخرى غليظة «حشاشى» . وإذا دلفت من الميدان إلى مدخل شارع مراسينه ، سمعت ضجيج السكارى فى خمارة أنسطاسى التى يلقبها أهل الحى بفكاهتهم « خمارة أنست » . يخرج منها سكير هائج يتطوح ويتعرض للمارة :

– وروني أجعص فتوة .

– جتك لهوه يا بعيد .

– سيبوه فى حاله داغلبان .

– ربنا يتوب عليه .

أشباح الميدان الحزينة المتعبة يحركها الآن نوع من البهجة والمرح . ليس فى الدنيا هم ؛ والمستقبل بيد الله . تتقارب الوجوه بود ، وينسى الوجيع شكايته ، ويبذّر الرجل آخر نقوده فى الجوزة أو الكتشينة ، وليكن ما يكون ! تقل أصوات اصطدام كفف الموازين ، وتختفى عربات اليد ، وتطفأ الشموع داخل المشنات ، عندئذ تنتهى جولة إسماعيل فى الميدان . هو خبير بكل ركن وشبر وحجر ، لا يفاجئه نداء بائع ، ولا ينبههم عليه

مكانه . تلفه الجموع فيلتف معها كقطرة المطر يلقمها المحيط . صور متكررة متشابهة اعتادها فلا تجد فى روحه أقل مجاوبة . لا يتطلع ولا يمل . لا يعرف الرضا ولا الغضب . إنه ليس منفصلا عن الجمع حتى تتبينه عينه . من يقول له إن كل ما يسمعه ولا يفطن له من الأصوات ، وكل ما تقع عليه عينه ولا يراه من الأشباح ،لها كلها مقدرة عجيبة على التسلل إلى القلب ، والنفوذ إليه خفية ، والاستقرار فيه ، والرسوب فى أعماقه ، فتصبح فى كل يوم قوامه . أما الآن فلا تمتاز نظرته بأية حياة . . . نظرة سليمة ، كل عملها أن تبصر .

٣

اقتربت المراهقة وأخذ جسده يفور ، وكأنه مرغم ، فهو فريسة ممزقة بين قوى دافعة وأخرى جاذبة . يهرب من الناس ويكاد يجن لوحدته . بدأ يشعر بلذة غريبة فى أن يندس بين المترددات على المسجد ، ولا سيما يوم الزيارة . فى هذا الزحام كان معنى اللباس عنده أنه فواصل بين الأجساد العارية ، يحس بها من صدمة هينة أو احتكاك وامض . فى وسط هذه

الأجساد كان يشعر بلذة المستحم فى تيار جار لا يبالى نقاء الماء . . . روائح العرق والعطر لا تكربه ، بل يتشممها بخيشوم الكلاب . لا يخلو يوم الزيارة من بعض المومسات – فسيدى العتريس مأمور أن لا يصد أحداً عن الساحة – يفدن لتقديم شمعة للمقام أو للوفاء بنذر ، عسى الله أن يتوب عليهن ويمحو ما على الجبين من مقدّر مسطور . كان يراهن من قبل فلا يفطن إليهن ، أما الآن فهو يتبعهن وتعلق نظرته بهن وتتريث . واختص بانتباهته فتاةً تأتى كل يوم زيارة . سمراء جعدة الشعر ، رقيقة الشفتين . هذه هى نعيمة ، تمتاز عن زميلاتها بصمتها وقوامها الأهيف . كلهن يمشى مشية المتخاذل المنحلّ غير مكترث . أما هى ، فكأنما تسير إلى غرض ، مالكة كيانها وروحها . ذراعاها ممدودتان إلى جانبها ، يواجهك باطن كوعها . ولو دققت النظر لما وجدت من مومس إلا ذراعين مكسورتين من أثر السقوط ، وإن كانت الثنية عندها سر الخلاعة !

يبتسم إسماعيل عندما يرى الشيخ درديرى – خادم المقام – وسطهن كالديك بين الدجاج . يعرفهن واحدة واحدة ، ويسأل عن الغائبات . يأخذ من هذه شمعتها ، ويوسع لأخرى

طريق صندوق النذور . يتبدل رضاه فجأة ، فيزجرهن ويدفعهن دفعاً إلى الخروج . تأتى إليه أيضاً نسوة ورجال يسألونه شيئاً من زيت قنديل أم هاشم ، لعلاج عيونهم أو عيون أعزائهم . يشفى بالزيت المبارك من كانت بصيرته وضاءة بالإيمان ، فلا بصر مع فقد البصيرة . ومن لم يشف فليس لهوان الزيت ، بل لأن أم هاشم لم يسعها بعدُ أن تشمله برضاها . لعله عقاب آثامه ، ولعله هو لم يتطهر بعدُ من الرجس والنجاسة ، فيصبر وينتظر ويتردد على المقام . فإن كان الصبر أساس مجاهدة الدنيا ، فإنه أيضاً الوسيلة الوحيدة للآخرة .

فى هذا الزيت مورد رزق متسع للشيخ درديرى ، ومع ذلك لا تظهر عليه آثار النعمة . فجلبابه القذر هو هو ، وعمامته الغبراء هى هى . وماذا يفعل بنقوده ! هل يكنزها تحت بلاطة ؟ يتهمه زملاؤه أنه يحرقها فى الحشيش ، بدليل سعاله الذى لا ينقطع ، وبدليل ما فى طبعه من ميل (للقفش) والتنكيت . والحقيقة أنه مزواج ، لا يمر العام إلا ويبنى ببكر جديدة . عرفه إسماعيل من تردده على المقام ، واعتاد أن يمرّ عليه فى أغلب الليالى بعد صلاة العشاء ليتندر بحديثه . ومال الرجل للفتى

واختصه بحنانه ، هذا الحنان هو الذى حمله ذات ليلة على الإفضاء إليه بسر لم يفض به إلى أحد غيره :

— تعرف ياسى إسماعيل ليلة الحضرة ، يجىء سيدنا الحسين ، والإمام الشافعى ، والإمام الليث ، يحفون بالسيدة فاطمة النبوية والسيدة عائشة ، والسيدة سكينة ، فى كوكبة من الخيل ، ترفرف عليهم أعلام خضر ، ويفوح من أردانهم المسك والورد ، يأخذون أمكنتهم عن يمين الست وعن يسارها ، وتنعقد محكمتهم وينظرون فى ظلامات الناس ، لو شاؤوا لرفعوا المظالم جميعها . ولكن الأوان لم يئن بعد ، فما من مظلوم إلا وهو ظالم أيضاً ، فكيف الاقتصاص له ؟ فى تلك الليلة ، هذا القنديل الصغير الذى تراه فوق المقام ، يكاد لا يشع له ضوء ، ينبعث منه عندئذ لألاء يخطف الأبصار . . . إننى ساعتها لا أطيق أن أرفع عينىّ إليه . زيته فى تلك الليلة فيه سر الشفاء . فمن أجل ذلك لا أعطيه إلا لمن أعلم أنه يستحقه من المنكسرين .

كان إسماعيل غائب الذهن ، يفكر فى الفتاة السمراء التى تزمّ شفتيها . وانتبه إلى الشيخ درديرى وهو يشير بأصبعه إلى القنديل : وسنان كالعين المطمئنة رأت ، وأدركت ، واستقرت .

يضفو ضوؤه الخافت على المقام، كإشعاع وجه وسيم من أم تُلقم رضيعها ثديها فينام فى أحضانها . ومضات الذبالة خفقات قلبها حناناً ، أو وقفات تسبيحها همساً . يطفو فوق المقام كالحارس مبتعداً تبجيلا . أما السلسلة فوهم وتعلّة . . . كل نور يفيد اصطداماً بين ظلام يجثم وضوء يدافع ، إلا هذا القنديل فإنه يضىء بغير صراع ! لا شرق هنا ولا غرب ، ما النهار هنا ولا الليل ، لا أمس ولا غد .

وانتفض إسماعيل، لا يدرى ما هذا الذى مسّ قلبه !

٤

ووافقت المراهقة سنة البكالوريا . وخرج إسماعيل من الامتحان وقلبه واجف مفعم بالشكوك . وأعلنت النتيجة فإذا به ، يفوز ولكن فى ذيل الناجحين .

لقد كان أمله ورجاء الأسرة كلها أن يدخل مدرسة الطب ، فإذا بها تصده عن أبوابها . واقترب العام الجديد ، ولم يستقر على قرار . ليس أمامه إلا أن يدخل مدرسة المعلمين إن شاء، أو أن يدرس للبكالوريا من جديد، ويضيع سنة من

عمره . وكلا الأمرين بغيض إلى نفسه . لم يكن الشيخ رجب بأقل من ابنه قلقاً وحيرة . ولكم توقع بعض معارفه أن يكتفى بتعليم ابنه إلى الحدّ الذى بلغه ويوظفه بالبكالوريا ، إن لم يكن للمساعدة ، فللتخفيف عنه . آه لو علموا كيف عقد الشيخ رجب نيته على أن يدفع بابنه إلى الصفوف الأولى ! ! يذهب هنا وهناك يسأل عن حلّ . . . لا أدرى من الذى قال له :

– لماذا لا ترسل ابنك إلى أوربا ؟

بات الشيخ رجب ليلته يتقلب على جنبيه .

علم أن هذا الحل سيكلفه من عشرة إلى خمسة عشر جنيهاً فى الشهر ، غير ما يلزم لابنه فى أول الأمر من نفقات الطريق وثياب تقيه برد الشمال ؟ أيفارق ابنه ؟ وهل ترضى أمه ؟ أم سيقف حنانها فى سبيل مستقبل إسماعيل ؟ وهل يقوى على دفع هذا المبلغ بانتظام كل شهر ؟ إنه لو فعل لما بقى للأسرة كلها إلا ما تعيش به على الكفاف والشظف . وإلى متى ؟ ست سنوات أو سبعاً ، والزمان قاس يدور دورة عكس . كما سمع أذان العشاء ، سمع أذان الفجر ، ثم أخذته غفوة هتف به خلالها صوت رقيق :

– توكل على الله . . .

استيقظ من نومه وقد عقد عزمه . وفهمت الأم أن لامهرب من الفرلق ، فرضيت صامتة وإن لم ينقطع بكاؤها . إلى أين ؟ بلاد برّه ! كلمة لها رنين وسحر تتسلل ، كروح مبهمة لا يطمئن لها ، إلى المنزل الذى لا تنقطع فيه تلاوة القرآن ، وحيث الشرع هو الحق والعلم جميعاً . وثوت هذه الروح فى ركن صغير من الدار وغطت رأسها وتمطت ، ونامت منتصرة قريرة العين . بلاد برّه ! ينطق بها الأب كأنها إحسان من كافر لا مفر من قبوله ، لا عن ذلة ، بل للتزود بنفس السلاح . أما الأم ، فمنذ الآن تركبها رعدة المحيط وتأخذها رجفة البرد . تتصور بلاد بره فى نهاية سلم عال ينتهى إلى أرض تغطيها الثلوج ، ويسكنها أقوام لهم حيل الجن وألاعيبهم . أما فاطمة النبوية فقلبها واجف ، تسمع أن نساء أوربا يسرن شبه عاريات ، وكلهن بارعات فى الفتنة والإغراء . فإذا سافر إسماعيل ، فلا تدرى كيف يعود ، إن عاد !

وجمع الأب كل ما استطاع جمعه من مال ، وباعت الأم حليها ، واشتريت تذاكر السفر والملابس الثقيلة التى تقى من

برد أوربا . واقترب موعد السفر وحلّ الوداع .

واجتمعت الأسرة صامتة حزينة . قلوب خافقة ، وعيون دامعة . وأنشأ الأب يقول لابنه :

— وصيتى إليك أن تعيش فى بلاد بره كما عشت هنا ، حريصاً على دينك وفرائضه ، وإن تساهلت مرّة فلن تدرى إلى أين يقودك تساهلك . ونحن يا بنى نريدك أن ترجع إلينا مفلحاً لتبيض وجوهنا أمام الناس . وأنا رجل قد أوشكت على الكبر ، وقد وضعت كل آمالنا فيك . وإياك أن تغرك نساء أوربا ، فهن لسن لك وأنت لست لهن .

ثم صمت الأب قليلا وعاد يقول :

واعلم أن أمك وأنا قد اتفقنا على أن تنتظرك فاطمة النبوية . فأنت أحق بها وهى أحق بك . هى بنت عمك وليس لها غيرك . وإن شئت قرأنا الفاتحة معاً يومنا هذا ، عسى أن يصحب سفرك البركة واليمن .

لم يسعه إلا القبول . فوضع يده فى يد أبيه ، وقرأ الفاتحة . بينهما أم تبكى ، وفتاة حيرى بين الأسى والفرح .

كان إسماعيل يعلم أن هذه الفاتحة ستأتى فى يوم ، ولكنه لم

يتوقعها فى تلك الليلة . فلقد نشأ مع فاطمة النبوية أخوين ، وقلما نظر إليها كما نظر إلى فتاته السمراء .

قرأ الفاتحة وهو شارد اللُّب ، إرضاء لأبيه ، وقلبه يقول له : « احفظ عهدك ! » فيجيبه : « لماذا ؟ لماذا ؟ » كل هذه أشياء غامضة ، لأنه حتى اليوم ما يزال طاهراً عفيفاً ، لم يقترب من امرأة . وإنه لكاذب — وإسماعيل لا يكذب — إذا أنكر أنه جوعان إلى فتاته السمراء ، إلى النساء جميعاً . ولا سيما أخيراً ! إلى نساء أوربا .

٥

وخرج إسماعيل يودع بعض أصدقائه ، ثم انتهى إلى الميدان وقد اقترب الغروب . . . تتلقف آذانه ما أمكنها من نداءات الباعة التى ألفها . وخيّل إليه أن فى الميدان حركة غير التى عهد ، كأن القوم قد أصبحوا أسرع مشية . ما لهم لا يلوون على شىء ؟ أفليست الحياة إلا سباقاً ؟ كم ود لو وقف واحد من المندفعين وبادله الحديث . لم يلتفت إليه أحد . فى الميدان حركة النمل تتعارض وتتحاذى وتضرب فى كل اتجاه . قادته

قدماه إلى المقام، فوجده ساكناً على غير عادته . الشيخ درديرى واقف مطأطئ الرأس، كأنما هو متعب أو تسلط عليه خوف ورهبة . دار إسماعيل حول المقام، حتى إذا جاء للسور الذى يفصل مكان النساء عن الرجال انتبه إلى شبح واقف وراءه . هى فتاته السمراء ألصقت جبينها على السور . سمّر إسماعيل فى مكانه وسمعها تقول هامسة :

يا أم هاشم ! يا ستارة على الولايا ، لا تغضى عينيك ولا تشيحى بوجهك . تمد إليك يد مسترحمة فخذيها . إن الله طهرك وصانك وأنزلك الروضة ، وإن قلبك لرؤوف . إذا لم يقصدك المرضى والمهزومون والمحطمون، فمن غيرك يقصدون ؟ إذا نُسينا فاذكرى أنت ! متى يمحى القدّر علىّ . أيرضيك أن جسدى ليس منى ، فما أشعر بالألم وهو ينهشه نهشاً . ها هى روحى على عتباتك تتلوى وتتمرغ مصروعة، تريد أن تفيق . منذ غادرنى رضا الله وأنا كالنائم يركبه الكابوس ، يقبض فى يد واحدة على الموت والحياة ! رضيت لحكمه وأسلمت نفسى ، ولن أضيع أنت هنا معنا . أفيطول الأمد ، أم رحمة الله قريب ؟ نذرت لك يوم يتوب المولى علىّ أن أزين مقامك الطاهر

بالشموع خمسين شمعة ، يا أم هاشم يا أخت الحسين !

ووضعت الفتاة شفتيها على سور المقام . ليست هذه القبلة من تجارتها ، بل من قلبها . ومن ذا الذى يجزء بأن أم هاشم لم تسع إلى السور وقد هيأت شفتيها من ورائه لتبادلها قبلة بقبلة ؟

همّ إسماعيل أن يخرج من المسجد ليلحقها ويكلمها ، فلم تتحرك قدماه . أراد أن يفضى لها بكل ما فى نفسه . إن لحظة الانتزاع من الأسرة والوطن، لمواجهة الغربة والوحدة والمجهول، تضنى أعصابه وتهصر قلبه . لماذا يهتز لمرآها دون سائر النساء ؟ أواهم هو ؟ لا . إن صوتاً خفياً يريد أن ينطق فى قلبه ويتكلم ويرشده إلى السر . ولكن هناك ألف غطاء وغطاء تكتم هذا الصوت وتخفته . ولعلّ الفتاة لم تره ولم تشعر به . وهرب إسماعيل من حيرته إلى الشيخ درديرى ، وحديثه الثرثار ينزل بلسماً على فؤاده . وقفته فى صمت المقام ، وتحت ضوء القنديل ، ويده معلقة بالسور تارة ، ماسحة على وجهه تارة أخرى ، هى آخر ما يذكره عن رحيله من القاهرة . فكل ما حدث له بعد خروجه من المقام شمله من أخمص قدميه إلى رأسه، كالتيار المندفع

العنيف ، يتأرجح فيه ملقى القياد ، مقلوب الوضع ، فقد خلاله الزمن ترتيبه ، والمرئيات اعتداها ، والأصوات صدقها وفروقها . وداع الأسرة . وما أمرّه ! فى الدار وسط النحيب والبكاء ، والمحطة ، والقطار ثم الميناء وحركته ، والباخرة المجهولة وصفيرها . إننى أتخيله صاعداً سلم الباخرة شاباً عليه وقار الشيوخ ، بطيء الحركة ، غرير النظرة ، أكرش ، ساذجاً ، كل ما فيه ينبئ أنه قروى مستوحش فى المدينة . أقسم لى عمى إسماعيل فيما بعد أنه كان يحمل فى أمتعته قبقاباً ، فقد سمع الشيخ رجب أن الوضوء فى أوربا متعذر لاعتياد الناس ليس الأحذية فى البيوت . كما وصف لى وهو يبتسم سراويله وطولها وعرضها وتكتها المحلاوى . كان معه أيضاً سلة ملأى بالكعك و(المنين) . . . من عمل أمه وفاطمة النبوية .

وسافرت الباخرة .

٦

ومرّت سبع سنوات ، وعادت الباخرة .

من هذا الشاب الأنيق السمهرى القامة ، المرفوع الرأس ،

المتألق الوجه ، الذى يهبط سلم الباخرة قفزاً ؟ هو والله إسماعيل بعينه . أستغفر الله ! هو الدكتور إسماعيل ، المتخصص فى طب العيون ، والذى شهدت له جامعات إنجلترا بالتفوق النادر ، والبراعة الفذة ، كان أستاذه يمزح معه ويقول له :

ـ أراهن أن روح طبيب كاهن من الفراعنة قد تقمصت فيك يا مستر إسماعيل . إن بلادك فى حاجة إليك ، فهى بلد العميان .

رأى فيه دراية كأنها ملهمة ، وصفاء هو سليل نضج أجيال طويلة ، ورشاقة أصابع هى وريثة الأيدى التى نحتت من الحجر الصلد دمى تكاد تحيا .

أقبل يا إسماعيل فإنا إليك مشتاقون . لم نرك منذ سبع سنوات مرت كأنها دهور . كانت رسائلك المتوالية ، ثم المتراخية ، لا تنفع فى إرواء غلتنا . أقبل إلينا قدوم العافية والغيث . وخذ مكانك فى الأسرة ، فستراها كالآلة وقفت بل صدئت لأن محركها قد انتزع منها . آه ! كم بذلت هذه الأسرة لك . فهل تدرى ؟

لم ينم إسماعيل ليلة الوصول إلا غراراً . قفز إلى ظهر الباخرة

مع الفجر يريد ألا يفوته أول ما يبدو من شاطئ الإسكندرية . لا يرى شيئاً على الأفق ، ولكن خياشيمه تتشمم فى النسيم رائحة لم يألفها من قبل . أول من لقيه من وطنه مخلوق الكون كله وطنه . طائر أبيض ، منفرد يحوم حول السفينة ، طليق متعال ، نظيف ، وحيد . لماذا تتعمد البواخر كل هذا التلكؤ عند الوصول ، وما كان أسرعها عند الفراق ؟ إنها تتهادى بدلال العودة ، فما لها وللركاب وما يشعرون . كتم إسماعيل عن أهله موعد الباخرة حتى لا يكلف أباه الشيخ مشقة السفر للإسكندرية. فى عزمه أن يبرق إليهم بموعد وصول قطاره للقاهرة . هذا هو الفنار المتمنطق . وهذا هو الشاطئ الأصفر يكاد يكون فى مستوى الماء . أنت يا مصر راحة ممدودة إلى البحر لا تفخر إلا بانبساطها . ليس أمامك حواجز من شعاب خائنة ، ولا على شاطئك جبال تصد . أنت دار كل ما فيها يوحى بالأمان . . . ها هو أول قارب يظهر ، فيه شيخ قد وخط الشيب لحيته ، مقوس الظهر ، أقعى كالقرد فى مقدم قاربه يصطاد . جلبابه الأزرق، أو الذى كان أزرق ، ممزق مرقع . وقعت نظرة إسماعيل على سيدة مصرية وقفت بجواره ، فرآها

مطلة على الصياد ، مغرورقة عيناها بالدموع وسمعها تتمتم :

— مصر ! مصر !

كيف ينتبه لها الصياد ، وهو لم ينتبه للباخرة كلها ! مثلها كثيرات داخلات خارجات تكاد تصدم قاربه ، ولكن هيهات لها أن تصدم عالمه المقفل . عالم يجرى على وتيرة واحدة متكررة يوماً بعد يوم . همّ إسماعيل أن ينادى هذا الشيخ ويلقى عليه السلام ، أو يلوح له بمنديل . كيف تسقط المقاييس وينهزم المنطق فى مثل تلك اللحظات التى تتأجج فيها العواطف ، وتصفو القلوب ! ورن جرس إيذاناً بموت الباخرة ، فأصبحت جثتها فريسة لجيش من النمل البشرى يهاجمها . جنود وضباط ، وإخواننا المحتلون ولو أنهم أخلاط مطربشون ، وحمالون وصيارفة وزوار . ثم اندلق الزحام والتدافع ، وتعالت النداءات ، وكثر العناق والتقبيل . وإسماعيل وسط التيار ، غير مغمور . يلتقط بنهم كل ما يصل إليه ، وعلى شفتيه ابتسامة حلوة مطمئنة . له أذن فارزة واعية ، ونظرة حية يقظة تريد أن ترى كل شىء ، وتفهم كل شىء . إذا دققت النظر إليه ، وجدت تكورات وجهه قد زالت ، وشُد شدقاه فى أخدودين . كانت

شفتاه مرتخيتين ، قلما تنطبقان . أما الآن فقد ضمهما عزم ووثوق . يجتاز الجمارك . وفى العربة يستمع لوقع عجلاتها بين الأسفلت والبلاط ، فيذكره تنافر النغم وتناوبه بيوم السفر . كم يبدو له هذا اليوم متردياً فى هوة من ماض بعيد . بعيد كالحلم .... كيف تقوى ذكرى هذا اليوم على البقاء بعد سبع سنوات قضاها فى إنجلترا قلبت حياته رأساً على عقب ؟ كان عفاً فغوى ، صاحياً فسكر ، راقص الفتيات وفسق . هذا الهبوط يكافئه صعود لا يقل عنه جدة وطرافة . تعلم كيف يتذوق جمال الطبيعة . ويتمتع بغروب الشمس – كأن لم يكن فى وطنه غروب لا يقل عنه جمالا – ويلتذ بلسعة برد الشمال .

إن لم يكن له فى هذه الفترة سوى (مارى) زميلته فى الدراسة ، لكفى بها فى نسيان ماضيه . لقد أخذ هذا الفتى الشرقى الأسمر بلبها فآثرته واحتضنته . عندما وهبته نفسها . كانت هى التى فضت براءته العذراء . أخرجته من الوخم والخمول إلى النشاط والوثوق . فتحت له آفاقاً يجهلها من الجمال : فى الفن ، فى الموسيقى ، فى الطبيعة ، بل فى الروح الإنسانية أيضاً .

قال لها يوماً :

– سأستريح عندما أضع لحياتى برنامجاً أسير عليه .

فضحكت وأجابت :

– يا عزيزى إسماعيل . الحياة ليست برنامجاً ثابتاً ، بل مجادلة متجددة .

يقول لها : « تعالى نجلس » ، فتقول له : « قم نسر » . يكلمها عن الزواج ، فتكلمه عن الحب . يحدثها عن المستقبل ، فتحدثه عن حاضر اللحظة . كان من قبل يبحث دائماً خارج نفسه عن شيء يتمسك به ويستند إليه : دينه وعبادته ، وتربيته وأصولها ، هى منه مشجب يعلق عليه معطفه الثمين . أما هى ، فكانت تقول له : « إن من يلجأ إلى المشجب ، يظل طول عمره أسيراً بجانبه يحرس معطفه . يجب أن يكون مشجبك فى نفسك » . إن أخشى ما تخشاه هى : القيود . وأخشى ما يخشاه هو : الحرية . كانت هبتها له فى مبدأ الأمر محلّ حيرته ، فكانت حيرته محل سخريتها . كان يتجافى الناس ويقدر احتمالات ودهم ، ويهتم كيف يكون حكمهم عليه . وإذا لقى من تريحه المجاملة لايجد بأساً فى مجاملته ، وقلبه غير مشارك . التعارف عنده اصطدام بين الشخصيات يخرج منه ظافراً أو خاسراً . أما هى ، فتهيم

بالناس جميعاً ، ولا تهتم بهم جميعاً . التعارف عندها لقاء ، والود متروك للمستقبل . ومع تساوى ودها للناس جميعاً ، كانت بتَّارة فى إقصاء الضعيف ، والسخيف ، والمتعالم ، والرذل ، والحزين ، والمنافق . فلما تخلصت من هذه الأوشاب ، أصبحت لا ينجذب إليها إلا من تطمئن لصحبتهم .

رأته يطيل جلسته بجانب الضعفاء من مرضاه ، ويخص بعطفه من يلحظ فيه آثار تخريب الزمن للأعصاب والعقول — وما أكثرهم فى أوربا . يجلس صامتاً ينصت لشكواهم . وكان أكبر كرم منه أن يماشى منطقه منطقهم المريض . لحظته (مارى) وحلقة المرضى والمهزومين تطبق عليه يتشبثون به . كل يطلبه لنفسه . فأقدمت وأيقظته بعنف :

— أنت لست المسيح بن مريم ! « من طلب أخلاق الملائكة غلبته أخلاق البهائم ! » و « الإحسان أن تبدأ بنفسك » . هؤلاء الناس غرقى يبحثون عن يد تمد إليهم ، فإذا وجدوها أغرقوها معهم ! إن هذه العواطف الشرقية مرذولة مكروهة ، لأنها غير عملية وغير منتجة . وإذا جردت من النفع ، لم يبق إلا اتصافها بالضعف والهوان . إنما هذه العواطف قوتها فى الكتمان لا فى البوح !

كانت روحه تتأوه وتتلوى تحت ضربات معولها . كان يشعر بكلامها كالسكين يقطع من روابط حية يتغذى منها ، إذ توصله بمن حوله . واستيقظ فى يوم فإذا روحه خراب ، لم يبق فيها حجر على حجر . بدا له الدين خرافة لم تخترع إلا لحكم الجماهير . والنفس البشرية لا تجد قوتها ، ومن ثم سعادتها ، إلا إذا انفصلت عن الجموع وواجهتها . أما الاندماج فضعف ونقمة .

لم تقو أعصابه على تحمل هذا التيه الذى وجد نفسه غريقاً وحيداً فى خلاته ، فمرض وانقطع عن الدراسة ، وافترسه نوع من القلق والحيرة ، بل بدت فى نظرته أحياناً لمحات من الخوف والذعر .

وكانت (مارى) هى التى أنقذته . أخذته فى رحلة إلى الريف بأسكتلندة ، يجولان بالنهار مشياً أو على الدراجة بين الحقول ، أو يصطادان السمك ، وبالليل تذيقه من متعة الحب أشكالا وألواناً . من حسن حظه أنه استطاع أن يجتاز هذه المحنة التى يتردى فيها الكثيرون من مواطنيه الشباب فى أوربا ، وخلص منها بنفس جديدة مستقرة ثابتة واثقة . إن اطرحت

الاعتقاد فى الدين ، فإنها استبدلت إيماناً أشد وأقوى بالعلم . لا يفكر فى جمال الجنة ونعيمها ، بل فى بهاء الطبيعة وأسرارها . ولعل أكبر دليل على شفائه أنه بدأ يتخلص من سيطرة (مارى) عليه . أصبح لا يجلس بين يديها جلسة المريد أمام القطب ، بل جلسة الزميل إلى زميله . لم يدهش ، ولم يتألم كثيراً ، عندما رآها تبتعد عنه وتنصرف إلى زميل من جنسها ولونها . إنها ككل فنان يمل عمله حين يتم . شفى إسماعيل ففقد كل سحره ، وأصبح كغيره ممن تعرفهم . فلتجرب إذاً صديقها الجديد . . . على أن إسماعيل لم يقو على مغادرة إنجلترا دون أن يسعى إلى لقائها لآخر مرة . دعاها فلم ترفض ، وجاءته . ولم يسأل نفسه : أعلى علم من صديقها الجديد أم على غفلة منه ؟ ووهبت له نفسها مرة أخرى ، فهذه العلاقة ليست عندها بذات بال ولا خطر . كانت ضمتها له نوعاً من المصافحة وسلام الوداع .

وهتف به وهى تنصرف على دراجتها :

ــ آمل أن أراك فى مصر يوماً من الأيام . ومن يدرى ؟ فإلى اللقاء إذاً ، ولا أقول وداعاً .

نساء العصر الحديث ! كم ذا يواجهن الاحتمالات بقلوب

ثابتة . شجرة الحياة أمامهن مثقلة بالثمر منوعته . لهن شهية مفتوحة . فلِم التأسى والبكاء على ثمرة ، والشجرة مفعمة ؟

٧

والظاهرة العجيبة التى لا أستطيع تفسيرها أن إسماعيل أفاق من حبه (لمارى) فوجد نفسه فريسة حب جديد . ألأن القلب لا يعيش خالياً ؟ أم أن (مارى) هى التى نبهت غافلا فى قلبه فاستيقظ وانتعش ؟ كان إسماعيل لا يشعر بمصر إلا شعوراً مبهماً ، هو كذرة الرمل اندمجت فى الرمال واندست بينها ، فلا تميز منها ، ولو أنها مع ذلك منفصلة عن كل ذرة أخرى . أما الآن فقد بدأ يشعر بنفسه كحلقة فى سلسلة طويلة تشده وتربطه ربطاً إلى وطنه . فى ذهنه مصر عروس الغابة التى لمستها ساحرة خبيثة بعصاها فنامت . عليها الحلىّ ، و (دواق) ليلة الدخلة . لا رعى الله عيناً لم تر جمالها ، ولا أنفاً لا يشم عطرها ! متى تستيقظ ؟ متى ؟ وكلما قوى حبه لمصر ، زاد ضجره من المصريين . ولكنهم أهله وعشيرته ، والذنب ليس ذنبهم . هم ضحية الجهل والفقر والمرض والظلم الطويل المزمن . إنه حدّق

فى الموت مراراً ، وجس المجذوم، واقترب فمه من فم المحموم . ترى هل ينكص الآن عن لمس هذه الكتلة البشرية التى لحمه من لحمها ودمه من دمها ؟ قد عاهد نفسه فى حبه لمصر أن لا يرى منكراً إلا دفعه . علمته (مارى) كيف يستقل بنفسه ، وهيهات لهم بعد ذلك أن يجرعوه خرافاتهم وأوهامهم وعاداتهم . ليس عبثاً أن عاش فى أوربا وصلى معها للعلم ومنطقه . علم أن سيكون بينه وبين من يحتك بهم نضال طويل ، ولكن شبابه هوّن عليه القتال ومتاعبه . بل كان يتشوق إلى المعركة الأولى . وسرح ذهنه فإذا هو كاتب فى الصحف ، أو خطيب فى أحد المجتمعات يشرح للجمهور آراءه ومعتقداته .

وتحرك القطار بإسماعيل ولم يرسل برقيته . لا يدرى لماذا ضعف عن لقائهم بالمحطة وسط الضجيج والضوضاء وعلى أعين الناس ، وربكة المتاع . إنه يود أن يلقى أعزاءه فى دارهم ، وعلى نجوة من الغرباء . ولم يقدر وقع المفاجأة على أبيه وأمه العجوز . ذكرهما فوجف قلبه . هل يستطيع أن يؤدى لهما بعض ما هو مدين به ؟ إنه قادم مزوّد بنفس السلاح الذى أراده له أبوه ، وسيشق لنفسه بهذا السلاح طريقه إلى أول الصفوف . وسيعرض

عن خدمة الحكومة ويفتح عيادة فى أرقى أحياء القاهرة . وسيدهش القاهريين أولا ثم المصريين جميعاً بما أتقنه من فن واكتسبه من خبرة . فإذا تدفق عليه المال أعفى أباه الشيخ من العمل، واشترى له أرضاً فى بلدهم ليعيش مستريحاً . ثم وجم إسماعيل . لقد تذكر أنه لم يأت معه من أوربا بهدية لأسرته ، وسرى عنه إذ قال لنفسه :

— ماذا فى أوربا كلها يصلح لأبى وأمى ؟

وفاطمة النبوية ؟ ذكراها تثير فى نفسه بعض الاضطراب ، لم يزل مرتبطاً بوعده ، وقد عاد حراً ، فلا عذر له إذا اعتذر . هذه مسألة معقدة فلنتركها للمستقبل .

وأطل من النافذة فرأى أمامه ريفاً يجرى كأنما اكتسحته عاصفة من الرمل، فهو مهدم معفر متخرب. الباعة على المحطات فى ثياب ممزقة، تلهث كالحيوان المطارد، وتتصبب عرقاً .

ولما سارت العربة من المحطة ، ودخلت شارع الخليج الضيق الذى لا يتسع لمرور الترام، كان أبشع ما يتصوره أهون مما رآه : قذارة وذباب ، وفقر وخراب ، فانقبضت نفسه ، وركبه الوجوم والأسى ، وزاد لهيب الثورة فى قرارة نفسه ، وزاد التحفز .

وقف أمام البيت ، وتناول مطرقته ، وتركها تسقط ، فاختلطت دقتها بدقات قلبه . سمع صوتاً رقيقاً ينادى بلهجة نساء القاهرة :

ـ مين ؟

ـ أنا إسماعيل ! افتحى يا فاطمه !

٨

يا إسماعيل . ما أقساك ! وما أجهل الشباب !

كادت أمه يغمى عليها ، وانعقد لسانها وهى تضمه وتقبل وجهه ويديه ، تشهق وتبكى . يا لله ! كم شاخت وتهدلت وضعف صوتها وبصرها ! إن الغائب فى وهم ، يتوقع أن يعود لأحبابه فيجدهم كما تركهم منذ سنوات . صوت يهمس فى قلبه :

ـ ليست لها من الشخصية نصيب ! ليست إلا كتلة من طيبة سلبية .

وجاءه أبوه تفيض عليه ابتسامة هادئة . اشتعل شيبه وإن لم تنحن قامته . فى عينيه نظرة مشوبة من إعياء وصبر ، من

راحة ضمير وشعور بالحمل الثقيل . سيعلم إسماعيل فيما بعد أن الأزمة كوته بنارها فانتكست أمورة ، ومع ذلك لم يتأخر فى يوم ما عن موعد إيداع النقود بالبنك لابنه . لم يذكر لإسماعيل ما يعانيه أو يدعوه إلى الاقتصاد أو يستعجله للعودة . يلهو إسماعيل فى أسكتلندة مع رفيقته . يأكل البفتيك ، وأبوه قعيد داره ، عشاؤه طعمية أو فجل .

لإسماعيل نظره من طرف عينيه تطوف فى الدار ، فإذا هى أضيق وأشد ظلمة مما كان يذكر . أما يزال ضوؤهم من مصباح البترول ؟ قطع الأثاث بالية متناثرة تبدو — رغم مر السنين وطول الصحبة — كأنها مهاجرة فى دار غربة . ولماذا هم على البلاط وأين البساط ؟

هذه أم محمد ترتبك كعادتها بين الأطباق والحلل ، وهى تزغرد ، فيزجرها ويقول لها :

— بس بلاش خوته ، يا وليه اعقلى .

ولكن أين فاطمة النبوية ؟ أقبلت ، فإذا أمامه فتاة فى شرخ الصبا . ضفيرتاها ، وأساورها الزجاجية الرخيصة ، وحركاتها ، وكل ما فيها وما عليها ، يصرخ بأنها قروية من أعماق الريف .

هل هذه هى الفتاة التى سيتزوجها ؟ علم منذ اللحظة أنه سيخون وعده وينكث عهده . وما لها معصوبة العينين ؟ فهى ترفع ذقنها لتستطيع أن ترى وجهه . لم يدعها الرمد منذ سافر ، وساء حالها يوماً بعد يوم .

وأعد العشاء وجلسوا . ولعلهم جلسوا من أجله حول مائدة لهم من الخشب الأبيض . لم يأكل عليها أحد . لم يأكلوا هم من حدة الفرح ، ولم يأكل هو من صدمة اليقظة . اعترف لى إسماعيل فيما بعد بأنه — حتى فى اللحظة التى كان يجب أن تشغله سعادة العودة إلى أحضان والديه عن القياس والمقارنة والنقد — لم يملك نفسه عن التساؤل ! كيف يستطيع أن يعيش بينهم ؟ وكيف يجد راحته فى هذه الدار ؟

وأعد الفراش . وأبى الشيخ رجب إلا الانصراف إلى غرفته ليترك ابنه يستريح من عناء السفر . وهذه أمه تجذب نفسها جذباً وتهم بتركه ، ولكنها تشير إلى فاطمة وتقول :

— تعالى يا فاطمة ، قبل أن تنامى ، أقطر لك فى عينيك .

ورأى إسماعيل أمه وفى يدها زجاجة صغيرة ، وترقد فاطمة على الأرض وتضع رأسها على ركبة الأم ، فتسكب من الزجاجة

فى عينيها سائلا تتأوه منه فاطمة وتتألم .

سألها إسماعيل :

ــ ما هذا يا أمى ؟

ــ هذا زيت قنديل أم هاشم . تعودت أن أقطر لها منه كل مساء .

لقد جاءنا به صديقك الشيخ درديرى . إنه يذكرك ويتشوق إليك . هل تذكره ؟ أم تراك نسيته ؟

قفز إسماعيل من مكانه كالملسوع . أليس من العجيب أنه ــ وهو طبيب عيون ــ يشاهد فى أول ليلة من عودته ، بأية وسيلة تداوى بعض العيون الرمد فى وطنه ؟ . . .

تقدم إسماعيل إلى فاطمة فأوقفها ، وحل رباطها ، وفحص عينيها ، فوجد رمداً قد أتلف الجفنين وأضر بالمقلة ، فلو وجد العلاج المهدئ المسكن لتماثلت للشفاء ، ولكنها تسوء بالزيت الحار الكاوى .

فصرخ فى أمه بصوت يكاد يمزق حلقه :

ــ حرام عليك الأذية . حرام عليك . أنت مؤمنة تصلين ، فكيف تقبلين أمثال هذه الخرافات والأوهام ؟

وصمتت أمه وانعقد لسانها ، تحاول أن تتمتم ولا تبين .

ورأى إسماعيل شبح أبيه على الباب ، فى جلباب أبيض قصير ،وعلى رأسه طاقية تحتها وجه مربد . هل يتوقع قلبه الحنون مكروهاً ؟ ماذا ؟ لعل فى تصرفات إسماعيل وحركاته ونظراته ما أيقظ فى نفسه منذ اللحظة الأولى بعض الريبة.ما هذا الصراخ ؟ ماذا حدث ؟

ونطقت أمه أخيراً تستعيذ بالله وتقول له :

ــ اسم الله عليك يا إسماعيل يا ابنى . ربنا يكملك بعقلك. هذا غير الدوا والأجزا . هذا ليس إلا من بركة أم هاشم .

وإسماعيل كثور هائج لوحت له بغلالة حمراء .

ــ أهى دى أم هاشم بتاعتكم هى اللى ح تجيب للبنت العمى . سترون كيف أداويها فتنال على يدى أنا الشفاء الذى لم تجده عند الست أم هاشم .

ــ يا ابنى ده ناس كتير بيتباركوا بزيت قنديل أم العواجز . جربوه وربنا شفاهم عليه . إحنا طول عمرنا جاعلين تكالنا على الله وعلى أم هاشم . ده سرها باتع .

ــ أنا لا أعرف أم هاشم ولا أم عفريت .

هبط على الدار صمت مقبض كصمت القبور . فى هذا البيت تعيش قراءة القرآن والأوراد ، وصدى الأذان . كأنها جميعاً استيقظت وانتبهت ، ثم أطرقت وانطفأت ، وحل محلها ظلام ورهبة . . . لا عيش لها مع هذه الروح الغريبة التى جاءت لهم من وراء البحار .

وسمع صوت أبيه كأنما يصل إليه من مكان سحيق :

ــ ماذا تقول ؟ هل هذا كل ما تعلمته فى بلاد بره ؟ كل ما كسبناه منك أن تعود إلينا كافراً ؟

كل ما فعله إسماعيل بعد ذلك يدل على أن المرض العصبى القديم قد عاوده فجأة ، وانفجر بشدة من جديد . فقد وعيه وشعر بحلقه يجف ، وبصدره يشتعل ، وبرأسه يموج فى عالم غير هذا العالم. شب على قدميه واقفاً . لاشك أن فى نظرته ما يخيف ، فقد تضاءلت الأم أمامه وابتعد الأب عن طريقه . هجم إسماعيل على أمه يحاول أن ينتزع منها الزجاجة ، فتشبثت بها لحظة ، ثم تركتها له . فأخذها من يدها بشدة وعنف ، وبحركة سريعة طوح بها من النافذة .

وكان صوت تحطمها فى الطريق دوى القنبلة الأولى فى المعركة.

ووقف إسماعيل حائراً لحظة ، له نظرة تجوب ما حوله وتتنقل من وجه أمه وفاطمة إلى وجه أبيه . وجد إشفاقاً وعطفاً ، ولم يجد تسامحاً وفهماً . ربما استشف فى نظرتهم بعض الرعب ، فتزايد هياجاً وانطلق إلى الباب . وفى طريقه وجد عصا أبيه فأخذها ثم هرب من الدار جرياً . لن ينكص عن أن يطعن الجهل والخرافة فى الصميم طعنة نجلاء — ولو فقد روحه .

٩

أشرف على الميدان فإذا به يموج كدأبه بخلق غفير ، ضربت عليهم المسكنة ، وثقلت بأقدامهم قيود الذل . ليست هذه كائنات حية تعيش فى عصر تحرك فيه الجماد . هذه الجموع آثار خاوية محطمة كأعقاب الأعمدة الخربة ، ليس لها ما تفعله إلا أن تعثر بها أقدام السائر . ما هذا الصخب الحيوانى ؟ وما هذا الأكل الوضيع الذى تلتهمه الأفواه ؟ يتطلع إلى الوجوه فلا يرى إلا آثار استغراق فى النوم كأنهم جميعاً صرعى أفيون . لم ينطق له وجه واحد بمعنى إنسانى . هؤلاء المصريون : جنس سمج ثرثار ، أقرع أمرد ، عار حاف ، بوله دم ، وبرازه

ديدان . يتلقى الصفعة على قفاه الطويل بابتسامة ذليلة تطفح على وجهه . ومصر ؟ قطعة (مبرطشة) من الطين أسنت فى الصحراء ، تطنّ عليها أسراب من الذباب والبعوض ، ويغوص فيها إلى قوائمه قطيع من الجاموس نحيل . . . يزدحم الميدان ببائعي اللب والفول ، وحب العزيز ، ونبوت الغفير ، والهريسة والسمبوسكة ، بمليم الواحدة . فى جنباته مقاهٍ كثيرة على الرصيف بجوار الجدران ، قوامها موقد وإبريق وجوزة . أجساد لم تعرف الماء منذ سنين . الصابون عندها والعنقاء سواء . تمر أمامه فتاة مزججة الحواجب ، مكحلة العينين ، شدت ملاءتها لتبرز عجيزتها وطرف ثوبها ، وتحجبت ببرقع يكشف عن وجهها . وما معنى هذه القصبة التى تضعها على أنفها ؟ أف ! ما أبشع رياء هذا المنظر وما أقبحه ! سرعان ما بدأ الناس يتحككون بها كأنهم كلاب لم يروا فى حياتهم أنثى ! هنا جمود يقتل كل تقدم ، وعدم لا معنى فيه للزمن ، وخيالات المخدر ، وأحلام النائم والشمس طالعة . . .

لو استطاع إسماعيل لأمسك بذراع كل واحد منهم وهزه هزة عنيفة وهو يقول :

– استيقظ . استيقظ من سباتك وأفق ، وافتح عينيك . ما هذا الجدل فى غير طائل ؟ والشقشقة والمهاترة فى سفاسف ؟ تعيشون فى الخرافات ، وتؤمنون بالأوثان ، وتحجون للقبور ، وتلوذون بأموات !

وعثرت قدمه بطفل ملقى على الرصيف ، والتف حوله جموع من الشحاذين يعرضون عليه عاهات يرتزقون منها رزقاً حلالا . كأنها من نعم الله عليهم ، أو مهن وصناعات .

وشعر إسماعيل بأن هذه الجموع أشلاء ميتة تطبق على صدره ، وتكتم أنفاسه ، وتبهظ أعصابه . يصطدم به بعض المارة كأنهم عمى يتخبطون . هذا الرضا عجز ، وهذه الطيبة بلاهة ، وهذا الصبر جبن ، وهذا المرح انحلال .

انفلت إسماعيل من الزحام، وجرى إلى الجامع ودخله ، واجتاز الصحن إلى الحرم . المقام يتنفس بدل الهواء أبخرة ثقيلة من عطور البرابرة . هذا هو القنديل قد علق التراب بزجاجه، واسودت سلسلته من (هبابه) . تفوح منه رائحة احتراق خانقة . أكثر ما ينبعث منه دخان لا بصيص ضوء . هذا الشعاع إعلان قائم للخرافة والجهل . يحوم فى سقف المقام خفاش اقشعر له بدنه .

حول المقام أناس كالخشب المسندة ، وقفوا مشلولين متشبثين بالأسوار . فيهم رجل يستجدى صاحبة المقام شيئاً لم يفهمه إسماعيل ، وإنما وعى أنه يستعديها على خصم له ، ويسألها أن تخرب بيته وتيتم أطفاله . والتفت إسماعيل إلى ركن فى المقام، فوجد الشيخ درديرى يناول رجلا معصوب الرأس بمنديل نسائى زجاجة صغيرة فى حرص وتستر ، كأنما هى بعض المهربات . لم يملك إسماعيل نفسه . . . فقد وعيه ، وشعر بطنين أجراس عديدة ، وزاغ بصره ، ثم شب ، وأهوى بعصاه على القنديل فحطمه ، وتناثر زجاجه ، وهو يصرخ .

ـ أنا . . . أنا . . . أنا . . .

ثم لم يستطع أن يتم جملته . (ومن يدرى ماذا كان سيقول ؟) هجمت عليه الجموع ، وتهدمت فوقه ، فخر على الأرض مغمى عليه . ضربوه ، وداسوه بالأقدام ، وجرح رأسه ، وسال الدم على وجهه ، ومزقت ثيابه .

علمنا بعد ذلك أنه أشرف على الموت تحت الأقدام ، لولا أن تعرف عليه الشيخ درديرى ، فأنقذه واستخلصه من غضب الناس وعنفهم وهو يقول :

ـ اتركوه ! إننى أعرفه . هذا سى إسماعيل ابن الشيخ رجب . من حتتنا . اتركوه . ألا ترون أنه (مريوح) .

واحتمله إلى الدار ، ووضعوه على الفراش ، واجتمعت الأسرة فى ليلة الفرح بعودته تبكى صوابه المفقود .

لعن الله اليوم الذى سافرت فيه يا إسماعيل ؟ ليتك ظللت بيننا ولم تفسدك أوربا فتفقد صوابك ، وتهين أهلك ووطنك ودينك .

صكت الأم وجهها ، وتأوه الأب وكتم ألمه وغيظه ، وسكبت فاطمة دموعها مدراراً .

١٠

ومرت أيام كثيرة وإسماعيل لا يغادر الفراش . ركبه العناد ، فأدار وجهه للجدار لا يكلم أحداً ولا يطلب شيئاً . ولما أفاق قليلا بدأ يفكر : هل يعود إلى أوربا ليعيش وسط أناس يفهمون الحياة ؟ إن الجامعة عرضت عليه منصب مساعد أستاذ فرفضه بغباوة ، ولعلهم يقبلونه الآن إذا طلب . ولم لا يتزوج هناك ، ويبنى لنفسه أسرة جديدة بعيداً عن هذا الوطن المنكود ؟ لماذا

ترك إنجلترا بريفها الجميل ، وأمسياتها الهنيّة ، وقسوة شتائها الجبار ، وجاء لبلد يفرون فيه من بعض الرذاذ كأنما تحيق بهم نكبة أو يدهمهم طوفان ؟ أما يدرون أن هناك وجوهاً صامتة ونظرة ثابتة ، تسير تحت المطر والثلوج تقاوم الأعاصير ؟ وما فائدة الجهاد فى بلد كمصر ومع شعب كالمصريين ، عاشوا فى الذل قروناً طويلة ، فتذاوقوه واستعذبوه ؟

ثم أخذته غفوة ، واختلط عليه الأمر . إنه كالطير قد وقع فى فخ ، وأدخلوه القفص ، فهل له من مخرج ؟ يشعر بجسمه وقد شد إلى هذه الدار التى لا يطيقها ، وربط إلى هذا الميدان الذى يكرهه ، فمهما حاول فلن يستطيع فكاكا .

واستيقظ إسماعيل ذات صباح وهو يشعر بنشاط عجيب . فى مثل هذه الأحوال يقفز الشخص من النقيض إلى النقيض فجأة وبلا سبب ظاهر . وخرج من الدار مبكراً ، وعاد يحمل حقيبة ملأى بالزجاجات والأربطة والمراود ، وبدأ علاجه لفاطمة كما يقتضيه طبه وعلمه . لقد عالج فى أوربا أكثر من مئة حالة مثلها ، فلم يخنه التوفيق فى واحدة . فلماذا لا ينجح مع فاطمة أيضاً ؟ وسلمت الفتاة إليه نفسها مطمئنة ، لا يهمها

مرضها ، بقدر ما يهمها أن تكون بين يديه موضع عنايته ورفقه . وتجنبه أبوه وأمه ، ولم يعودا يعارضانه فى شىء إشفاقاً على صحته.

فى الصباح تجلس فاطمة بين يديه وقبل النوم . ومرّ يوم وثان وثالث ورابع ، وأسبوع وآخر ، وعيون فاطمة على حالها ، ثم إذا بها تسوء فجأة وتلتهب ، ويختلط سوادها بالبياض .

ضاعف إسماعيل عنايته ، وكرر أنواع الأدوية ، وقلب جفونها ومس ، وقطّر ومرهم ، وكشط ومسح ، فما أجدى طبه نفعاً . إنه ليس بالجاهل ، يرى أمامه فاطمة اقتربت من العمى ولا ينقذها فى علمه حيلة .

أخذها إلى زملائه فى كلية الطب ، وعرضها على الأساتذة ، فوافقوه على طريقته فى العلاج ، ونصحوه بالاستمرار .

فقاوم وثابر . . . وأخيراً استيقظت فاطمة على صباح وهى تفتح عينيها ولا ترى . . . لقد انطفأ آخر بصيص تتعزى به .

١١

هرب إسماعيل من الدار ، لم يستطع الإقامة فيها وفاطمة أمامه ، وعماها دليل على عماه . عيون أبيه وأمه تلومانه . ما الذى

حدث ؟ لماذا أخفق ؟ إنه لا يفهم شيئاً . أين يذهب ؟ لم يبدأ بعد عملا ، ولا هو بقادر ولا راغب فى الالتجاء للحكومة لتعيينه فى إحدى القرى النائية . باع كتبه وبعض الأدوات التى أحضرها معه من أوربا ، وسكن فى غرفة ضيقة فى بنسيون مدام إفتاليا ، وهى سيدة يونانية بدينة أخذت تستغله منذ أول وقوعه فى يدها ، حتى لتكاد تضع فى كشف الحساب تحية الصباح . أو تستقضيه خطوتها إذا قامت وفتحت له الباب . حاسبته مرة على قطعة سكر استزادها فى إفطاره . يحس بابتسامتها أصابع تفتش جيوبه . أهداها بعض الفطائر والسجائر فأخذتها نهمة متلهفة ، وفى الصباح سألته أن لا يطيل السهر فى غرفته حرصاً على الكهرباء . لاشك أن الأفرنج فى مصر من طينة أخرى غير التى رآها فى أوربا . كان يحبس نفسه فى غرفته، فطردته هذه المعاملة إلى الشوارع يجوبها من الصباح إلى منتصف الليل . وفى كل ليلة يجد نفسه – ولا يدرى كيف – وسط ميدان السيدة يجوب حول داره ، يتطلع إلى نوافذها ، يريد أن يرى وجه فاطمة أو يسمع صوتها . فاطمة ضحيته ، ومع ذلك لم تثر . . . لم تشك . . . لم تلمه . أسلمت إليه نفسها

عن رضى فأوردها التلف ، فما قالت لذابحها تريث . . .
وهكذا يظل واقفاً فى الميدان ، ساعات طويلة ، سارح الذهن ، شارد اللب ، تتسرب إلى أذنه النداآت القديمة . هى هى لم تتغير . ماذا ؟ لعل كل والد أورث ابنه مهنته وصوته وموضعه فى الميدان ! مساكين ! كل من خدمهم منَّ عليهم واستعجلهم الجزاء أضعافاً مضاعفة . لم يخدمهم أحد لله أو حبًّا فيهم ، ومع ذلك جروا وراء كل من توهموا فيه الإخلاص وتشبثوا بأذياله ، ورفضوا أن يروضعفه أو خيانته . هذا شعب شاخ فارتد إلى طفولته. لو وجد من يقوده لقفز إلى الرجولة من جديد فى خطوه واحدة ، فالطريق عنده معهود والمجد قديم ، والذكريات باقية.

تساءل إسماعيل : هل فى أوربا كلها ميدان كالسيدة زينب ؟ هناك أبنية ضخمة جميلة ، وفن راق ، وأناس وحيدون فرادى ، وقتال بالأظافر والأنياب ، وطعن من الخلف ، واستغلال بكل الوسائل . مكان الشفقة والمحبة عندهم بعد العمل وانتهاء النهار. يروحون بها عن أنفسهم كما يروحون عنها بالسينما والتياترو.

ولكن . لا . لا . . . لو أسلم نفسه لهذا المنطق لأنكر عقله وعلمه . من يستطيع أن ينكر حضارة أوربا وتقدمها ، وذل

الشرق وجهله ومرضه ؟ لقد حكم التاريخ ولا مردَّ لحكمه ، ولا سبيل إلى أن ننكرر أننا شجرة أينعت وأثمرت زمنا ثم ذوت.

يفر إسماعيل من الميدان إلى غرفته، ويقضى ليلته يفكر كيف يهرب لأوربا من جديد ، ولكنه لا يلبث أن يعود إلى موقفه المعهود بميدان السيدة فى مساء الليلة التالية .

١٢

وجاء رمضان فما خطر له أن يصوم . ابتدأ يطيل وقفته فى الميدان ويتدبر : فى الجوّ ، فى الهواء ، فى المخلوقات ، فى الجمادات كلها شيء جديد لم يكن فيها من قبل . كأن الوجود خلع ثوبه القديم واكتسى جديداً . علا الكون جو هدنة بعد قتال عنيف .

يحدث إسماعيل نفسه : لماذا خاب ؟ لقد عاد من أوربا بجعبة كبيرة محشوّة بالعلم ، عندما يتطلع فيها الآن يجدها فارغة ، ليس لديها على سؤاله جواب. هى أمامه خرساء ضئيلة ، ومع خفتها فقد رآها ثقلت فى يده فجأة .

ودار بعينيه فى الميدان . وتريثت نظرته على الجموع

فاحتملتها . وابتدأ يبتسم لبعض النكا ت والضحكات التى تصل إلى سمعه ، فتذكره هى والنداآت التى يسمعها بأيام صباه . . . ما يظن أن هناك شعباً كالمصريين حافظ على طابعه وميزته ، رغم تقلب الحوادث وتغير الحاكمين . (ابن البلد) يمر أمامه كأنه خارج من صفحات (الجبرتى) . اطمأنت نفس إسماعيل وهو يشعر أن تحت أقدامه أرضاً صلبة . ليس أمامه جموع من أشخاص فرادى ، بل شعب يربطه رباط واحد : هو نوع من الإيمان ، ثمرة مصاحبة الزمان ، والنضج الطويل على ناره . وعندئذ بدأت تنطق له الوجوه من جديد بمعان لم يكن يراها من قبل . هنا وصول فيه طمأنينة وسكينة ، والسلاح مغمد . وهناك نشاط فى قلق وحيرة ، وجلاد لا يزال على أشده ، والسلاح مسنون . ولم المقارنة ؟ إن المحب لا يقيس ولا يقارن . وإذا دخلت المقارنة من الباب ، ولى الحب من النافذة .

وحلت ليلة القدر . . . فانتبه لها إسماعيل ، فى قلبه لذكراها حنين غريب . ربى على إجلالها والإيمان بفضائلها ، ومنزلتها بين الليالى . لا يشعر فى ليلة أخرى — حتى ولا ليالى العيد — بمثل ما يشعر به من خشوع وقنوت لله . هى فى ذهنه

غرة بيضاء وسط سواد الليالى . كم من مرة رفع فيها بصره إلى السماء فبهره من النجوم جمال لا يراها تنطق به بقية العام .

وغاب لحظة عن أفكاره ، فإذا به ينتبه على صوت شهيق وزفير عميق يجوبان الميدان . هذا هو سيدى العتريس ولا ريب . رفع بصره . القبة فى غمرة من ضوء يتأرجح يطوف بها . انتفض إسماعيل من رأسه إلى أخمص قدميه . أين أنت أيها النور الذى غبت عنى دهراً ؟ مرحباً بك ! لقد زالت الغشاوة التى كانت ترين على قلبى وعينى . وفهمت الآن ما كان خافياً على . لا علم بلا إيمان . إنها لم تكن تؤمن بى ، إنما إيمانها ببركتك أنت وكرمك ومنّك . ببركتك أنت يا أم هاشم .

ودخل إسماعيل المقام مطأطئ الرأس فأبصره يرقص عليه ضوء خمسين شمعة زينت جوانبه ، والشيخ درديرى يتناولها واحدة واحدة من فتاة طويلة القامة سمراء اللون ، جعد الشعر . هى نعيمة ! ! قد زال انطباق شفتيها وبدت لها سنَّان . وإن تكلمت فصف من أسنان بيض كاللؤلؤ . تكفى النظرة إليها أن تنسى وجود كل قبيح .

لقد صبرت وآمنت ، فتاب الله عليها ، وجاءت توفى

بنذرها بعد سبع سنوات . لم تقنط ، ولم تثر ، ولم تفقد الأمل في كرم الله .

أما هو — الشاب المتعلم ، الذكى المثقف — فقد تكبر وثار ، وهجم وهجم ، وتعالى فسقط .

ورفع إسماعيل بصره ، فإذا القنديل فى مكانه يضىء كالعين المطمئنة التى رأت ، وأدركت ، واستقرت . خيل إليه أن القنديل ، وهو يضىء ، يومىء إليه ويبتسم .

وجاءه الشيخ درديرى يسأله عن صحته وأخباره ، فيميل عليه إسماعيل يقول :

— هذه ليلة مباركة يا شيخ درديرى ، أعطنى شيئاً من زيت القنديل .

— والله أنت بختك كويس . . . دى ليلة القدر ؟ وليلة الحضرة كمان .

وخرج إسماعيل من الجامع وبيدة الزجاجة وهو يقول فى نفسه للميدان وأهله :

— تعالوا جميعاً إلىّ ! فيكم من آذانى ، ومن كذب علىّ ، ومن غشنى ، ولكنى رغم هذا لا يزال فى قلبى مكان لقذارتكم

وجهلكم وانحطاطكم ، فأنتم منى وأنا منكم . أنا ابن هذا الحى ، أنا ابن هذا الميدان . لقد جار عليكم الزمان ، وكلما جار واستبد ، كان إعزازى لكم أقوى وأشد .

ودخل الدار ونادى فاطمة :

– تعالى يا فاطمة ! لا تيأسى من الشفاء . لقد جئتك ببركة أم هاشم! ستجلى عنك الداء ، وتزيح الأذى ، وترد إليك بصرك فإذا هو حديد . . .

وشد ضفيرتها واستمر يقول :

وفوق ذلك ، سأعلمك كيف تأكلين وتشربين ، وكيف تجلسين وتلبسين ، سأجعلك من بنى آدم .

وعاد من جديد إلى علمه وطبه يسنده الإيمان . لم ييأس عندما وجد الداء متشبثاً قديماً ، يجادله بعناد ولا يتزحزح . ثابر واستمر ، ولاحت بارقة الأمل . ففاطمة تتقدم للشفاء على يديه يوماً بعد يوم ، وإذا بها تكسب فى آخر العلاج ما تأخرته فى مبدئه ، فهى تقفز أدواره الأخيرة قفزاً .

ولما رآها ذات يوم أمامه سليمة فى عافية ، فتش فى ذهنه وقلبه عن الدهشة التى كان يخشاها ، فلم يجدها .

١٣

وافتتح إسماعيل عيادته فى حى البغالة بجوار التلال ، فى منزل يصلح لكل شىء إلا لاستقبال مرضى العيون . الزيارة بقرش واحد لا يزيد . ليس من زبائنه متأنقون ومتأنقات ، بل كلهم فقراء ، حفاة وحافيات . والغريب أن شهرته استقرت فى القرى المجاورة للقاهرة دون القاهرة ذاتها . فاكتظت داره بالفلاحين والفلاحات ، يجيئون بهدايا من البيض والعسل والبط والدجاج .

كم من عملية شاقة نجحت على يديه . بوسائل لو رآها طبيب أوربا لشهق عجباً . استمسك من علمه بروحه وأساسه ، وترك المبالغة فى الآلات والوسائل اعتمد على الله ، ثم على علمه ويديه ، فبارك الله فى علمه ويديه . ما ابتغى الثروة ولا بناء العمارات وشراء الأطيان ، وإنما قصد أن ينال مرضاه الفقراء شفاءهم على يديه .

وتزوج إسماعيل فاطمة ، وأنسلها خمسة بنين وست بنات .

* * *

وكان فى آخر أيامه ضخم الجثة . أكرش . أكولا نهما ،

كثير الضحك والمزاح والمرح ، ملابسه مهملة ، تتبعثر على أكمامه وبنطلونه آثار رماد سجائره التى لا ينفك يشعل جديدة من منتهية . وأصيب بالربو فاحتقن وجهه ، وتندى العرق على جبينه ، وانقلب تنفسه إلى نوع من الموسيقى . وأصبح من يشاهده لا يدرى أهو متعب أم مستريح . فلما احتبست ضحكاته فى حلقه ، اجتمعت فى عينيه . فليس هناك عيون أقوى على التعبير من عيون المصدورين ، يكاد يقفز منها إليك شيطان لعوب ، كلها حب وفهم ، فيها خبث وطيبة ، وتسامح وإعزاز ، وكأنها تقول لك قبل كل شىء :

— ليس كل ما فى الوجود أنا وأنت ، هناك جمال وأسرار ومتعة وبهاء . السعيد من أحسها ، فعليك بها عليك . . .

إلى الآن يذكره أهل حى السيدة بالجميل والخير ، ثم يسألون الله له المغفرة . مم ؟ لم يفض إلى أحد بشىء ، وذلك من فرط إعزازهم له . غير أنى فهمت من اللحظات والابتسامات أن عمى ظل طول عمره يحب النساء ، كأن حبه لهن مظهر من تفانيه وحبه للناس جميعاً .

رحمه الله . . .

السلحفاة تطير . . .

هذه قصة خيالية ، ولكنها ليست خرافة ، فوقائعها محتملة الحدوث ، وبطلها ليس مستحيلاً وجوده ، ومن يدرى ؟ ربما كان حياً يرزق ! والواقع أننى أعرفه ، بل تربطنى به صلة أقوى وأشهى من القرابة والنسب ، صلة الجوار . فنحن أولاد حارة واحدة . أسارع وأقول إنها — والحمد لله — حارة مسدودة . فمثل هذه الحارات وحدها هى التى تعمل فى تصفية الود بين الجيران ما تعمله الزجاجة فى تعتيق الشراب . على رأس الحارة تقوم دار داود أفندى — بطل هذه القصة الخيالية — : واجهة طويلة ، بها الباب على الحارة ، وواجهة أخرى على الشارع ، مع أنها شبر ونصف شبر عرضاً ، إلا أنها تدل على أن صاحب الدار أوجه وأغنى من بقية السكان الذين لا يستطيعون رؤية لزفات والمواكب و « الخناقات » إلا بثنى رقابهم ، وبخطر لوقوع فى يد رجال الإسعاف .

وداود أفندى لو خرج من بين سطور هذه القصة الخيالية

وعاش ، لكان الوحيد بيننا الذى يسكن فى ملكه . والمعروف أن له أيضاً استحقاقاً فى وقف عن أم أمه أو جد جده ، فلماذا يتشبث بهذه الدار القديمة فى هذه الحارة المسدودة ؟ لو كنت مكانه لانتقلت إلى الحلمية أو المنيرة . كلنا نجله لغناه ، و (نستعبطه) لنزوله إلى مستوانا . ولعلى كنت من بين سكان الحارة ، أكثرهم ارتباطاً به رغم اختلافنا فى السن والمهنة .

كنت إذا عدت لدارى من المطبعة فى صفرة الشمس ، ومررت عليه وهو جالس أمام باب داره ، دعانى لمجالسته ، وتشبث بى كأنه يجد لذة فى أن تصافح يده الناعمة النظيفة يداً صلبة خشنة كيدى .

فى هذه الجلسات تأتّى لى أن أنصت أو أحثه على القول ، حتى وقفت على تاريخ حياته ، وليس فيها — مع الأسف — شىء من الأسرار التى تشرئب لها الأذن . هو من أولاد الذوات الذين ورثوا عن وارثين عن وارثين ، فكان من المعقول أن يفتقروا طبقة بعد طبقة وجيلا بعد جيل ، فأصبحوا كالحيوان البرمائى لا هو هنا ولا هو هناك . فهم لذلك أسرع انقراضاً . هو بالنسبة إلينا غنى ، ولكنه فى الواقع فقير . ومع ذلك فهو يعتز بأصل لا يغنيه فيستريح ، ولا يسلكه فى الفقراء فيريح . . . وماذا يفعل

وهو من قمة رأسه إلى أخمص قدميه ابن عز ؟ فى كرمه وجهله ، فى طيبته مع معارفه ، وازوراره بل نفوره من الغرباء . تجافيه عن العالم الخارجى فيه تمسك بالماضى . كأنه يعيش من وراء سد الصين . له قصص شائقة عن تخوت الحمولى وعثمان . بين الحين والحين يخرج علبة بيكاربونات الصودا ويسف منها قليلا دواء لمعدته . هو متأنق لا يأكل إلا أخف الطعام فى أغلب أيامه . وهو ككل أولاد الذوات الذين تربوا فى آثار عز سالف ، وجدت فيه مع الكبرياء والأنفة كثيراً من أخلاق الصبيان وقلة دراية بالحياة فى معتركاتها .

أذكر هذا لأننى كنت جالساً معه فى إحدى الأمسيات ، فرأيت صبى شيخ الحارة قادماً علينا ، مجداً فى خطواته ، ساهم النظرة كأنه فى غيبوبة . هو زنجى وأغلب الظن أنه ولد فى بوظة أو كان مهده قرعة . وجه نحس بشفته الغليظة الباذنجانية . وعيونه المختبئة تحت جفونه المرتخية تبدو كالخرزة الزرقاء لا تفترق عن عيون التيس فى جمودها ومكرها . حتى إذا وقف أمامنا أخرج من جيب سترته ورقة صغيرة متسخة وسلمها لداود أفندى . ما هذه ؟ دارت نظرتى خلسة فى لهف حول كتفه ،

ووقعت على الورقة ، فوجدت مكتوباً عليها (١٩ أحوال) .

– حضرتك مطلوب فى القسم باكر .

– ليه ؟

لا جواب .

– عند مين ؟

لا جواب .

تحرك الأسود وسار ، فعزرائيل لا يتريث ليبكى مع أهالى الميت . ثم ماكاد يسير خطوتين حتى أفاق لنفسه وعاد إلينا من جديد ، فأصول اللطمة أن تكون من قلمين ، ومال بوجهه – وجه الوابور – على أذن داود أفندى :

– عمى يرجوك ويرجوك ألا تتأخر .

ثم كان فص ملح وذاب .

داود أفندى قلق ، حائر . بين حين وآخر يسألنى : يا ترى لماذا ؟ لم أذهب للقسم فى حياتى ، وأشد ما أكره أن أتخطى بابه وأواجه هذا الصنف المسمى رجال البوليس ! أعوذ بالله ! من الذى اشتكانى ؟ هل أتيت جرماً دون أن أعلم ؟

كنت غير ملق بالى إلى همه التافه ، ولكنى انتبهت وعجبت

من أن كثيراً من الناس الطيبين لا يسلمون فى بعض الأحيان من الوهم والشك فى براءة ماضيهم . ألأن فى قلوبهم نازعاً خفيًّا إلى الإجرام ، فتختلط فى أذهانهم الرغبة بالحقيقة . أم هم يستيقظون فجأة إلى أنه ليس هناك دليل واحد على أن الحياة غير مزدوجة ؟ !

قد يكون الشخص الواحد مع الناس يذهب ويجىء ، ولكنه لا يستطيع أن يكون واثقاً كل الوثوق من أن ليس له فى الوقت نفسه حياة أخرى مبهمة كالأحلام . لا يشعر بها كما لا يشعر بما حوله من ركبه الدوار : حياة تتصل طى ضباب كثيف بحياة أشد غموضاً لكائنات أخرى .

كنت أود أن أهدئ مخاوفه وأطمئنه ، لكنى خشيت أن يعود سريعاً إلى الحديث الممل العادى الذى شبعت منه ليلة بعد ليلة . وخفت أكثر أن ينقطع الحديث سريعاً ، لأن الكلمة الطيبة قلما تقبل المط . وأحسست برغبة فى البقاء على رأس الحارة ، وقد طابت الجلسة وشملنا الغروب بسحره . فى كل مرة أنتبه للحظة سقطة قرن الشمس ، أشعر أنها شهقة دوامة تحتضر ، كان انفراجها النهار وانطباقها الليل . فأخذت — علم الله لا لغرض إلا إطالة الجلسة الظريفة — أستثيره وأحرك مخاوفه .

ونقلت الحديث من البوليس وفظاظته، إلى البلطجية وأفاعيلهم . رئيسى فى المطبعة له شهر فى الحبس ولا يدرى لماذا . وآخر اتهمه بلطجي بالتزوير ليفرض عليه ضريبة : ولهؤلاء البلطجية حيل لا يصل إلى قرارها الشيطان إن وصل : وربما سبقوا بالشكوى ليستولوا على أجر التصلح . . . ومن يدرى ! ربما وجدوا فيك يا داود أفندى بطيبتك خير صيد ، فمدوا حولك حبائلهم . ثم إننى لست مطمئناً إلى (١٩ أحوال) هذه ! ووجه صبي شيخ الحارة ينم عن شر كبير ، ولا بد أنه عالم بشيء لم يرد الإفضاء به إلينا . ولم أقم إلا بعد أن (استوى) داود أفندى ، وبعد أن استحلفنى أن أمر عليه فى الصباح لنذهب إلى القسم معاً .

* * *

لا أدرى هل تأخرت فى النوم عفواً ، أم أحببت أن أستريح من سهرة الأمس . استيقظت وقد ارتفعت الشمس ، فخرجت من الحارة مهرولا كأنني هارب . ومع ذلك تشبث نظرى لحظة وأنا أجرى بباب بيت داود أفندى ، وخيل إلى أن مطرقته — وهى من نحاس على شكل يد مضمومة — تنبسط وتشير بسبابتها إلى ، إلا أن لمعانها ذكرنى سور مقام أم هاشم ، وتعلق المهزومين

والمرضى والمنكوبين بقضبانه . وانقبض قلبي خوفاً على صديقي داود أفندى . فمن نحس هذا الزمان ولؤمه أن يهان رجل طيب مسالم مثله ، ويكون مثله عند دخول القسم كمثل حيوان أليف آكل عشب يجد نفسه فجأة فى غابة تعج بكل ذى ظفر وناب . مع ذلك – وهذا شأن الحياة واكتساب الرزق بعرق الجبين وقشف اليدين – نسيته ونسيت أوهامه وأنا منمح مفقود وسط آلات المطبعة وهى تضج وتصطلك فى حركات مفاجئة منتظمة كأنها نفضات مقعد محموم . . . انتبهت إلى ذكراه وأنا أمام داره فى عودتى للحارة . رأيته فى انتظارى جالساً على كرسيه متلفعاً بعباءته . عندما قاربته حمدت الله أننى وجدته فى حدة وغضب أنسياه خلفى لوعدى . ومع ذلك ما كاد يكلمنى حتى فهمت مع الأسف أن لعبتى بالأمس فى إثارة مخاوفه وتحريضه على رجال البوليس . قد أدت إلى النتيجة التى كنت أريدها ولا أتوقعها . أستغفر الله ، أقصد أتوقعها ولا أريدها . كانت الدعوة إلى القسم فى شأن مخالفة هينة : إلقاء ماء قذر فى الطريق . ومع ذلك كان الجاويش من الفظاظة وقلة الأدب ، وداود أفندى من الكبرياء وقلة الصبر ، بحيث وقعت الواقعة بينهما . ثم

لم أستطع أن أفهم من داود أفندى ما حصل بالضبط . بكل صعوبة وبعد تردد كبير ، اعترف أن الجاويش هزه هزة أوقعت طربوشه على الأرض أمام عدد كبير من الناس ، بينهم بعض من يعرفونه من أهالى الحى . حاولت أن أخفف حدته، لكنه قاطعنى قائلا :

– لازم أطلب رد شرفى .

تطلعت إلى عينيه فوجدت فيهما–لا أمارات الغضب، بل أضواء سعادة كبيرة . أردت أن أقوم بواجبى وأصرفه عن التفكير الكثير فى أمر تافه ، لكنى عدلت سريعاً، لأننى رأيت زورقه قد بدأ يتحرك من المستنقع ليخرج إلى البحر العالى بأمواجه . وانقطع حديثه المبتذل ، وأخذ يتكلم لأول مرة كلاماً لا يسير على قضيبين مرسومين . خفت عليه أن يعود إلى ركوده وابتذاله، فهدتنى الحيلة أن أقول له :

– رد شرفك وطالب بتعويض قرش صاغ واحد !

قلتها لأننى أعلم أن لهذه الجملة سحراً غريباً يخلب أذهان عامة الشعب والبعيدين عن المحاكم والقوانين . ولعل أكثر الحقائق بريقاً وخلباً للأذهان ما كان أساسها التناقض . فكيف يثور

من يغضب للإهانة ،ومع ذلك تنتهى ثورته بأن يثمن شرفه بقرش واحد ؟ أى شرف هذا الذى يقدر بقرش ؟ أثرت هذه الجملة فى داود أفندى ، وزاد عزماً وإصراراً على الحصول على هذا القرش الواحد .

قضيت معه ليلتين نتشاور فى كيفية رفع الدعوى ، ولكن مَنْ مِنَ المحامين يمكن أن توكل إليه القضية ويصون أمانتها . وقد وقع اختيارنا فى أول الأمر على أفضل المحامين ، ولكنه باتفاق الجميع ليس أعلمهم . أما أعلمهم فليس أقواهم سلطاناً ونفوذاً لدى رجال الحكم . وأقواهم سلطاناً ونفوذاً ليس أكثرهم أمانة . وأخيراً اتفقنا على محام يسكن بالقرب منا ، على الأقل نستطيع أن نتردد عليه كل يوم بلا مشقة . اخترناه ، لا لفصاحته ولا لعلمه ولا لسلطانه ، بل لبخته . نعم لبخته ، فكل من اتصل به يؤكد أن سرًّا باتعاً يسنده فلا يتولى قضية إلا كسبها . أغلب زبائنه من عامة الشعب الصالحين .

عرضنا عليه الدعوى فأكد أنها رابحة وفى أقرب ميعاد ، وأن الجاويش سيجازى أشد جزاء ، وفوق ذلك يعاقب إداريًّا . وشرب داود أفندى من معسول كلامه ، فتخدرت أعصابه ، ودفع

مقدم الأتعاب جنيهين كالحلاوة .

وحددت الجلسة بعد ٤٠ يوماً .

وأخيراً ها هو القدر يتمخض بميعاد يفوز به داود أفندى . عمود تلغراف ، لولاه ما شعر راكب القطار بحركته ولا بسرعته .

* * *

دفعته دفعاً وسط الزحام — فهو لحمة — إلى قاعة الجلسة . وأنا متلهف إلى أن أرى كيف يكون موقفه وتاعثمه بين يدى القاضى ، ومواجهته للجاويش خصمه ثم عدوه . و « انحشرنا » فى مقعد وجلسنا ننتظر دورنا . كنت أتمنى ألا يكون داود أفندى شخصاً من دم ولحم ، بل شخصية وهمية وليدة سطور هذه القصة الخيالية ، لأننى تألمت وأنا أراه ممتقع اللون مصفراً مرتجف اليدين . جلس بجانبى كله عيون وآذان وليس منه لسانه أخذت أراقبه من طرف عينى ، فوجدته كالقشة فى بحر ، ينعكس فيها أقل اضطراب لسطحه علواً وهبوطاً ، ومداً وجزراً. اشتمله جو الجلسة من رأسه إلى أخمص قدميه ، وشد عليه قبضته فلا يستطيع خلاصاً . كل ما يسمعه جديد ، غريب ، رنان ، أخاذ . وأى سحر أقوى من سحر قاعة الجلسة ! صوت الجمهور

بين همس ووجوم ، ومحاورات القاضى والمحامين والنيابة تنقله إلى عالم غير عالمه . ثم فجأة وبدون سبب ظاهر يخيم على الجميع صمت عجيب . فيشعر أنه يسقط من علو شاهق وسط الفضاء . ثم من جديد يعود التيار إلى أشده، وإذا به محمول محملق يكاد يفقد وعيه : القفص ، والجنود ، نداء الحاجب . تلك التعابير القضائية التى تنحنى لها الجباه إجلالا ، وهى ليست إلا ألفاظاً !

لم يحضر المحامى عنا ، ونودى داود أفندى ونظرت دعواه ، ثم أجلت فى أقل من لمح البصر .

فلمدفعته مرة أخرى ــ كالهم الثقيل ــ وسط الزحام خارج الجلسة . وما كاد يتخطى بابها حتى بلع ريقه لأول مرة . وماذا كان يظن وهو جالس طول عمره فوق الرصيف ؟ لم يثر فى اضطرابه أقل شفقة ، بل شعرت أنه من العدل أن يدفع ثمن تعاليه وابتعاده عن محيط الحياة التى نعيشها نحن المكدودين المنصببين عرقاً فى زحمة الحياة . ولكنى ما كدت أضع ذراعى فى ذراعه لأقوده إلى القهوة المواجهة للمحكمة ، حتى رق قلبى وملأه عطف وحنان لم يعرفهما لأحد من قبل . وجلسنا وعلى

جانبينا موائد اكتظت بوكلاء المحامين وسماسرتهم . وكنت على صلة ببعضهم ، فدعوتهم للجلوس معنا وعرفتهم بصاحبى . ولما افترقنا على رأس الحارة ، لم يقل لى داود أفندى كعادته : «نتقابل هنا » ، بل قال :

ـ قابلنى بكرة على القهوة إياها .

دفع داود أفندى جنيهين آخرين للمحامى ليضمن حضوره فى الجلسة القادمة . كما أرضى الشهود بما وسعه كرمه .

وكنت قد غبت عنه بضعة أيام ـ ولعلها أسابيع ـ ولما عدت إليه وجدته على القهوة إياها محاطاً بأصدقائه ! ! من وكلاء المحامين ، وكلهم يحتسى القهوة والشاى ، ويدخن النارجيلة على حسابه . وإذا به يشترك معهم فى أحاديث مهنتهم ، وتجرى على لسانه نفس الألفاظ القضائية التى يتمشدقون بها ، بل ويدخل معهم إلى الجلسة فى بعض الأحيان . لما رأيته فى هذه الحال أردت أن أساعده وأوجد له ما يشغله ، فسعيت وعرفته بقريب لى معدم ، منعه فقره من رفع دعوى للمطالبة بملك واسع يظلمه فيه رجل ذو بطش وسلطان . أردت أن أخدم الاثنين ، ويكفينى ثواب المسعى . اتفق معى داود أفندى على

أن يقوم هو بالانفاق على الدعوى، نظير اقتسام ما يحكم به مناصفة بينهما . وأسر إلى داود أفندى أنه سيرهن مصاغ زوجته ليصرف على الدعوى .

بعد يومين رأيته يحمل «دوسيها» فى يده، سائراً مجداً إلى المحكمة . . .

* * *

حدث بعد ذلك أننى نسيت جارى العزيز داود أفندى نسياناً تامًّا ، لأننى كنت قد نجحت فى تحقيق أمنية طالما كتمتها فى صدرى ، ولازمتنى الليالى تنغص على نومى وأكلى وشربى . كنت أريد أن أتخلص من وسط عمال اليومية وألتحق بطبقة الأفندية! أصحاب المرتبات الشهرية . فكم أبليت نعلى ، وأحفيت قدمى ، وكم أرقت ماء وجهى وجف لسانى — ويغنى قولى هذا عن التفاصيل — حتى نلت رغبتى ، وعينت حاجباً أمام باب قلم فى وزارة . تخلصت من ماضىّ الكريه كله، وتخلصت أيضاً من الحارة المسدودة اللعينة ، وسكنت المنيرة .

مضى على فى وظيفتى زمن ، وذات يوم وأنا عائد من سوق الخضار، وفى يدى قرطاس بلح آكل منه ، مررت على

مطعم ، ولشد ما دهشت إذ وجدت فيه داود أفندى جالساً أمام طبق فول مدمس . داود أفندى « بجلبية » وجاكتة ، تجمع أصابعه بلقمة حبات الفول وتعجنها فى الزيت ، ثم تحملها كتلة واحدة – كالكرة – إلى فمه ، ويتجشأ برائحة البصل الأخضر والفجل . أشهد الله أن قلبى انشرح ، وأننى سررت كل السرور لتحسن صحته ، ولتخلصه من أمراض معدته . وأشهد الله أننى شعرت بموجة شوق قوية تملؤنى ، فجريت نحوه ومددت له يدى مشتاقاً يكاد الفرح يقفز من كيانى قفزاً .

– داود أفندى ؟ سلمات ، ازيك !

ولكنه ترك يدى ولم يأخذها ، ولما رفع إلىّ عينيه لم تستقر نظرته على وجهى حتى رأيتها تمتلىء بأقصى ما تستطيع العين أن تستوعبه من الكراهية والتأفف والبغض ، وإذا به يصرخ فى وجهى ويشيح عنى :

– روح الله يخرب بيتك زى ما خربت بيتى !

تملكتنى الحيرة فسمرت فى مكانى . أى جرم أتيت ؟ وماذا فعلت ؟ لا أذكر إلا أننى كنت دائماً تحت أمره كأننى عكازه . كنت أجلس منه مجلس الولد من أبيه ، وأترك عملى

لأكون فى خدمته ، ولا أذكر أننى خنته أو آذيته أو أضللته .

ولكن هذه المحاولات لم تفلح فى سند سياج كنت أقيمه بكل جهدى طول الوقت، لتتحصن وراءه نفسى ، ولو لتعيش فى دنيا أوهامها فى حمى من شك خفى بدأ يدب فى قلبى . . . وإذا بالسياج يرغمنى وينهد، وتبرز لى من ورائه تحملق فى وجهى كعيون البوم ، تهمة بشعة كالعدم ، قاسية كالقدر المترصد ، راسخة كالأزل .

(كن طيباً ما أمكنك ، حذراً ما استطعت ، فلن تكون يدك إلا أذى ، ولا قدمك إلا سوءاً) . شعرت فى جسمى ببرودة الموت ، وعشت زمناً أرثى لحالى وأقول : يا لى من مسكين ! ولكن سرعان ما أنفت هذه الضعة ، وأعدت نفسى للحياة — والحياة تقوى على أقوى الآلام ! — بقولى لنفسى :

— هون عليك . . . أين فجيعتك ؟ هذه قصة خيالية ، ولكنها ليست خرافة . . .

وهكذا من أول وجديد .

كنا ثلاثة أيتام . . .

ها هو قد تزوج ، وها هو يقبل زوجته ، فى كل قبلة يدعو الله أن يرزقه ولداً صالحاً تتجدد من بذرته شجرة أسرة ، ليست — وهنا العجب — بذات جاه أو ثراء. وجاء يومه المرجوّ ، وسلمته القابلة لفة لها لين العجين ورائحته . وقالت :

— بنت . بنت . هذه نعمة الله . . .

فسماها نعمات .

لم يدرك أن فى أغلب الرجاء طمع ، وأن بعض الدعاء جحود وتدخل فى الملكوت . . . وعاد إلى سؤال ربه فى صلاته ، وأطال تضرعه فى ركوعه وسجوده .

وجاء يومه المرتقب ، بين الخشية والأمل ، وسلمته القابلة لفة تتلوى كالحشرة ، وقالت :

— بنت . بنت . هذه عطية من الله . . .

فسمّى الثانية عطيات .

«نعمات» و «عطيات» . لم تكن أسماءً بقدر ما هى تلميح

بأن الرضا عن اضطرار ، وأن خضوع اليوم مرتبط بالرجاء فى تحقيق الوعد غداً . حرّك الأب الأبتر كل ما فى قلبه من شعل الإيمان ، وتوجه إلى الله بكل ما قدر عليه من خشوع ، وكرّر ابتهاله وتذلله . فاستجيب فى يومٍ دعاؤه . واستقر فى بطن الأم سرّ الصبى الموعود .

حينئذ مات أبى ، وهو لا يعلم أنه فاز بأمنيته : أوفى جهده على الغاية ، وتحقق الغرض من وجوده . وكان ثمن انطلاق السهم تمزق الوتر المشدود . إن سعادة الأفراد لا وزن لها فى تسلسل الأجيال .

وهكذا وُلدت يتيما ، ومع ذلك لست بغريب عن أبى . كل مرة أدخل فيها غرفة الاستقبال وتقع عينى على صورته الفوتوغرافية الشاحبة على الجدار ، أراه يبتسم لى ، ويكاد ينادينى . . .

* * *

ولم أكد أوظف بالحكومة وأقبض أول مرتب ، حتى ماتت أمى . كأنها لم تقو على فراقنا إلا بعد أن اطمأنت علىّ . وسرت وحيداً منفرداً خلف النعش . أما شقيقتاى ، نعمات وعطيات ،

فقد بقيتا، تنوحان وتلطمان الخدود وهما متدليتان من النوافذ . رأيت أكثر المشيعين يتطلعون إلى وجوههما ونهودهما من أطراف العيون . فى تلك اللحظة استفقت، وأدركت أنى أصبحت رب أسرة . أية أسرة ! فتاتان جميلتان . نعم جميلتان ، وإن لم تصح شهادتى . ليس لهما غيرى . قوّمت من ظهرى المنحنى ، وسرت رافع الرأس ، وتقبلت – على القبر – دون ثورة أو غضب وكره ، عبارات التشجيع والعزاء، والتوصية بالصبر والرجولة .

* * *

ثم مرت الأيام ، ودرج النسيان بأذياله على الماضى وأهله ، وإذا بى فى صحبة شقيقتىّ من أهنأ الناس . ثلاثتنا فى مقتبل الشباب ورونقه ، فى مرحه ونزقه ، فى جريه وقفزه ، فى عطره ونضرته . تساوٍ طليق ، لا تضغطه شيخوخة مولية ، ولا تأخذ بخناقه طفولة هاجمة . من حسن الحظ أننا لم نكن فى سعة تكفى للإنفاق على ثلاثتنا ، فقدم الصبي وحجزت البنتان فى الدار . وكذلك نجاهما الله من الجامعة بآدابها وفلسفتها ، وسلم لهما عقل غير ملتو يضل فى الفضاء، وطبع غير متكلف . كل منهما نمت أنثى جسماً وعقلا . لا يعكر حديثنا نقاش أو جدال . صحبة

يترك لى صفاؤها مطمعاً . . . فمن مثلى من الرجال تحوطه فتاتان ـــ لا فتاة واحدة ـــ بكل ما وسعهما من عناية وإخلاص؟ لا تقل ملابسى هنداماً ولا أكلى جودة عن زملائى المتزوجين ، دون أن أدفع ثمن هذه النعمة بالكدر والهم والضيق الذى أتبينه على وجوههم كل صباح فى المكتب . . . كانت نفسى قانعة وجسمى سعيد . نعيش متلاصقين كصغار القطط وهن عُمى . حلقتنا كاملة : هذه نعمات لبسها دور الأم الحنون فلبسته . هى أكثرنا رزانة واتزاناً . فى يدها مصروف البيت وتدبير خزينه . وبقيت عطيات « دلوعتنا الشعنونة » التى من أجلها نحرص — فى خفية منها ـــ على تذكر أقل رغبة لها ترد عرضاً فى سياق حديثها ، وننتظر إلى أن تحين الفرصة ، فنجد أكبر اللذة فى تعب البحث عن طلبتها ، وفى التحايل على كتمان أمرها ، إلى أن تعثر عليها فى تمام مناسبتها ، فنضحك معها لدهشتها ، ونشاركها الفرح بهديتنا . . . وفى بعض الأحيان أضع رأسى على ركبة عطيات ، فتعبث بأصابعها الطويلة فى شعرى ، كأم القرد تفلّى رأسه وتناغيه . . . بجانبنا نعمات تغمرنا بابتساماتها الحلوة ، وهى تخيط لى بعض ملابسى الداخلية . لو تركنا لأنفسنا لعشنا

سعداء فى هناء يكمل بعضنا بعضاً. ولكن كيف يتأتى ذلك ، وفى الناس إخلاص ومحبة ورغبة فى مساعدة الغير ، وتطوع لعمل الخير والتحريض عليه ! !

بدأ أقاربى ومعارفى يهمسون لى : « متى تزوج أختيك ؟ لقد آن الأوان ! ». ثم فى مرة أخرى : « كيف تأمل أن تعثر لهما على زوج صالح ، وأنت قابع فى داركم القديمة المختبئة بدرب الحجر من وراء حارة التمساح لا تزور ولا تزار . . . أم تراك معتمداً على الخاطبة ومقالبها ؟ »

أخذت وأنا خائف أتطلع إلى عيون شقيقتى على غفلة منهما وأسأل نفسى :

— هل هذه عيون ظامئة جائعة ؟

خيّل إلىّ فى بعض الأحيان أن نظرتهما الناطقة تخرس فجأة وتشرد فى الفضاء ، وأن تحت وشى هذه النظرات الجميلة يختبىء قزم من الحزن والحرمان : له عين البوم ، وأسنان الفأر ، وعناد الثور ونزق الجدى . . . أيها الشيطان الأسود ! مهما تراوغ فلن تخفى علىّ بعد الآن !

سهرت الليل أفكر . وأنار الفجر ظلام الليل وبصيرتى .

فاستبانت لى الحقيقة على ضوء النهار ، جسداً عارماً قبيحاً عارياً قوى العضلات . لا فائدة من مغالطة الطبيعة . ولا بد من التضحية وتحمل الوحدة ، والصبر على مرارة التسليم والانسحاب... رسمت لنفسي برنامجاً ، وصممت على تنفيذه دون استشارة أحد ، حتى شقيقتيّ . لن ألجأ إلى الأقارب ، فهم — كما يقول المثل — عقارب ، ولا إلى الخاطبة ، فهى سمسار بين عجزة . أليست المشكلة أن الزوج الصالح لم يأت إلينا ؟ إذاً فلنبحث عنه ، ولنذهب إليه ، وفى موطنه ، ولو أدى الأمر إلى اصطياده احتيالا . سأعد الشبكة الماكرة بنفسي ، وألقيها فى طريقه بيدى . هذا صيد حلال . وأى شيء أعظم ثواباً عند الله من تدبير زوج صالح لأعز الناس عليّ ؟

بعت بعض الحلى ، وسحبت كل نقودى المودعة بصندوق التوفير ، وأجرت شقة كالحق — ولكنها غالية عليّ ! — فى جاردن ستى ، واشتريت لها بعض الأثاث من معارض سليمان باشا . عن إذنك يا درب الحجر ! لقد ألغى الرق فأعتقينا لوجه الله ! وأنت أيتها الصناديق والشكمجيات ، وأنت أيتها الشمعدانات والمرايا المذهبة ، وأنت أيتها الكنبات والمقاعد المطعمة

بالصدف ، منك إلى صالة المزاد خطوة مباركة ! وداعاً ، وداعاً . فنحن فى دار كل مقام فيها قصير ، وكل صحبة إلى فراق . أتنتظرين أن أرثيك بدمعة ؟ من تلفت إلى الماضى لم تكفه دموع الخنساء ! أتسألينا البكاء ؟ بل اسألينا النسيان ، والنسيان السريع .

ولما دخلت العمارة ، قام لنا بوابها : بربرى له وقار القديسين وهيبة الأباطرة . ولما دلفت إلى المصعد بعد سلالم قليلة فرشت بالبساط وزينت بأصص الزهر ، ولما سمعت الوكيل يقول ! « هنا الأنتريه، وهنا الأوفيس » — اطمأن قلبى ، وقلت : قد أحكمت الشبكة ، فلننتظر صابرين ، وعلى الله توكلنا . . .

* * *

عشنا غرباء زمناً ، ثم بدأنا نألف الحى وأصواته ، ووجوه سكانه وعاداتهم . خرجت من الشقة ذات صباح فإذا بى أواجه صاحب الشقة المقابلة خارجاً بدوره. واحتوانا المصعد معاً . لا أدرى لماذا اطمأن قلبى إليه . ابتسامة منى — وكنت أنا البادئ ، وابتسامة منه ، وصلت الحديث بيننا . هو موظف كبير ، على المعاش . دعوت الله أن يكون له ابن صالح ، أو

ابن أخ ، أو ابن أخت ، أو صديق ، أو معرفة ، وقلت : لعلهم إذا رأوا أخلاقنا وشرفنا ، وخبروا أحوالنا واستقامتنا ، تقدموا بالخطبة . دعوته لزيارتنا ، فإذا به – لشدة دهشتى – يقبل بسهولة . جاء وزوجته ، سيدة نصَف ، حنت على أختى حنو الأم الرءوم . دعتنا لشرب الشاى عندهم وقالت وهى تنصرف :

– عسى أن تكون ابنتى سنية قد عادت من الإسكندرية فأقدمها إليكم .

حاولت ألا يظهر غمى على وجهى . كنت أنتظر أسماء رجال لا نساء . وقلت فى نفسى : « فلتكن زيارتنا الأولى هى الأخيرة ، فلم أجىء هنا من أجل التزاور مع أسرة ليس لديها رجال » .

وذهبت فى الموعد المضروب ، وأنا متحرج ضيق الصدر ..

وجاءت سنية . أيها الناس ! لا تبخلوا علىّ بكرمكم وطيبتكم . أشفقوا على شاب قليل الخبرة والتجربة مثلى ، ولا تبتسموا إذا وصفت لكم اضطرابى أمامها وحيرتى .

ماذا أقول ؟ كان اللقاء هو بدء تاريخ حياتى . ما قبله جاهلية معتمة ، وما بعده نور وإشراق . أحدثها وأسارقها

النظر . وإلا كيف تقوى عيناى العاشيتان على مواجهة هذا الجمال كله ؟ كنت بجانبها كالجرو المبتل يوضع فى الشمس .. ما كنت أدرك قبل رؤيتها أن اللباس من الفنون الجميلة . . . كأن جسدها تمنى فكان ثوبها تحقيق أمنيته ! وكأن الثوب نفسه اشتهى ، فكان هذا الجسد خليلته التى وجد لديها السكينة وطعم الحياة . . . ثوبٌ كم أبدى وكم أخفى ! استدار عليها يكاد يأسرها ، فإذا أسيرته طليقة تتحكم فيه . هابط إلى أن يقف حيث يتأرجح الذيل بين الكتمان والإفصاح . وحذاء تغنيك أناقته عن التساؤل عما يداريه . كل شعرة فى رأسها تسابقت إليها واصطفت راضية بجانب أختها . أو التفت معها أو من تحتها . عالمة أنها تشارك فى زينة ، سعيدة ناعمة بالدور الذى رسم لها . لو تهشم هذا الجسد وتفتت ألف كسرة ، لما خُدش جماله . وضحكت فأسمعتنى ضحكة تختصر العمر كله . فيها سذاجة الطفولة ، ومرح الصبا ، ومرارة التجربة . . . فم متهم وعيون بريئة . . . لم تهتم بى كثيراً . وما وجهت إلى غير نظرة أو نظرتين . ومع ذلك عندما انصرفت — وأنا أجرّ رجلىّ جرّا — كنت شاعراً بتعب من جس دقيق تناول روحى

وجسدى ، بأصابع توهم أنها تمسح وتربت ، وهى تندس وتنقب ... شعرت أننى عُرّيت ، وقلّبت ظهراً لبطن ، وفحصت واختبرت : قيست قامتى ، وسُبرت . وُزنت وكيّلت . عُركت وعضضت بالأسنان ، ورُننت على الأرض ... حُركت أوتار روحى واستمع لموسيقاها . . . ثم استخرج من مخبئه كتابى الدفين ، فروجعت فى النور صفحاته ، وقرئت سطوره كلمة كلمة . كل هذا والعيون مترددة ، والشفاه مستفهمة . . . ثم أصدرت حكماً لن يكون له نقض ولا إبرام ، إلى آخر حياتها وحياتى .

أيها الناس ! أشفقوا علىّ مرة أخرى . ولا تبتسموا من جديد إذا قلت لكم إننى تعبت حقًّا ، ولكنى مع ذلك وجدت فى هذا التعب لذة كبرى . . . لم أخش حكمها . بل سرنى أنها تناولتنى بالفحص . كنت كالمريض لا يسعده أمل الشفاء ، بقدر ما يسعده تقلبه بين يدى طبيب مدل ممتنع وراء أجر باهظ . . . انصرفت وأنا لا أزال ألوك فى فمى لذة مذاقها . . . ولما دخلت شقتنا ، حانت منى التفاتة إلى أختىّ . فقلت فى نفسى — والأسى يملؤها : « ما ينقصهما والله إلا أن تطول الضفيرة ، ويغطى الجورب السميك الركبة . لتبدوا شابتين من الريف . . . من غد إن شاء

الله ، سأعني بتوجيههما إلى الاعتناء بهندامهما وزينتهما ، وإلا كان فشل برنامجى المرسوم محققاً » .

ولكنى فى غدٍ نسيت كل شىء إلا سنية ! حاولت أن أجد مسوغاً لتكرار الزيارة فلم أوفق ، بل وجدت باب الشقة موصداً فى وجهى . ألأنهم رأوا لعابى يسيل وأنا أحدق فى ابنتهم خلسة ، فرثوا لحالى وأرادوا تجنيبى التعلق بسراب ؟ لما شعرت أنهم يتعمدون صدى زاد هياجى ، فإذا بى — وأنا المعروف باتزانى وأدبى — أفقد كل سيطرة على نفسى ورأيتنى . لشدة دهشتى آتى بحركات وتصرفات لا تصدر إلا عن أطفال أو مجانين . حاولت أن أستعين برشوة الخدم ، فضحكوا منى . تصديت لها فى الطريق . ألقيت أمامها رسائلى . تتبعتها كظلّها . كل هذا وهى لا تتكرم علىّ بكلمة أو بابتسامة . أقسم لكم أننى لا أدرى كم من الزمن مر علىّ وأنا فى هذه الحالة . قد يكون أسبوعاً وقد يكون شهراً . وأخيراً ضاق ذرعى ، وأحسست أن العذاب لوطال لقصفنى الألم ودمر قلبى وقضى على . هجمت عليها ذات يوم وهى سائرة وأمسكتها من ذراعها . لمسة فيها رعشة الغيظ والأمل ، وقلت لها صارخاً :

ـ ماذا تظنين ؟ أجرى وراءك طول العمر ؟ أليس لى عمل فى هذه الدنيا إلا أن أسير فى ركاب حضرتك ؟ العفو ! الآن أريد كلمة واحدة : نعم أو لا .

فنظرت إلىّ وابتسمت . . .

زرت معها معالم القاهرة . فكأننى سائح يجوس خلال مدينة مجهولة ساحرة لم يكن يعرفها من قبل . . . كنت أتلو كالببغاء قصيدة النيل ، فشرحتها لى سنية بيتاً بيتاً ، وأفهمتنى جمال معانيها ولفتاتها . فى حديقة الحيوان ـ التى طالما زرتها فلم أجد شيئاً ـ كلمتنى لأول مرة ، من وراء أعمدة السجن المؤبدة ، عيون صافية جميلة حزينة ، وشكت إلىّ وحدتها وآلامها . الفضل لسنية ، فى الراحة الكبرى التى شملت نفسى عندما آخيتهم جميعاً . . من زحف منهم أو طار ، أو دب على أربع . . .

قالت لى ذات يوم :

ـ ما العمل إذاً ؟ إن بابا يرفض بتاتاً ، لأنك موظف صغير ، ومرتبك قليل ، ولا يدرى كيف تقوى بهذا المرتب على المعيشة فى جاردن سيتى . . .

ولما رأتنى مطرق الرأس غمّاً ، أضافت تقول :

ـ ولكن ماما فى صفّى . . .

وكان القرار أن أنتقل إلى مسكنهم ، على أن تذهب نعمات وعطيات للإقامة مع إحدى خالاتى . . .

كلهم قالوا لى إننى ساعة « كتب الكتاب » كنت شارد اللب ، ثم إذا بى فجأة أبتسم ابتسامة خفيفة ، ظنوها من حرج سؤال المأذون الصريح . لا يعلمون أننى — ولا أدرى كيف — انتبهت إذ ذاك فحسب ، إلى قسوة الفكاهة ، وهى تنطبق علىّ ، فى المثل القائل :

« راح يصطاد . . . اصطادوه . . . »

كن . . .

. . . كان !

« ما معنى هذه الحياة ؟ »

ينخر هذا السؤال كالسوس فى نفس حسين فرغلى كل ليلة وهو خارج من القهوة بعد أن كوموا مقاعدها وأطفأوا أنوارها . يخف إليها قبل الغروب ، فيجد زملاءه المدرسين قد اجتمعوا حول (الطاولة) . ويدور اللعب بينهم — لا ينقطع لحظة واحدة — كالمعارك الحربية فى غليانها وقعقعتها . يتساقى اللاعبون كؤوساً مترعة من رحيق الفوز ومرارة الهزيمة ، فينهلون من وهمها ويسكرون . حسين لا يلعب بل يكتفى بتتبع الحجارة والزهر بشغف كبير . يلتوى رأسه ذات اليمين وذات اليسار ،كعروس ميكانيكية انفلت ضابطها . وهكذا هو أيضاً فى الحياة يعيش على هامشها ، ويلوذ بالشاطىء خوفاً من تيارها . عواطفه موزعة ، تارة مع الغالب ،

وتارة مع المغلوب . فالمحايد المحروم من لذة المشاركة فى الصراع ، يتسلى بمقدرته على الموازنة بالعدل والقصاص . إذا دار الحديث فعن العمل والوظائف والدرجات ، حتى كأنهم الإبل يجترون بالليل ما أكلوه بالنهار . . . أى عقل شيطانى تفتقت حيلته عن اختراع هذه الطاولة ؟ هى لعبة ساذجة متشابهة متكررة ، ومع ذلك لا ينقطع سحرها كأنها الحشيش أو الأفيون .

خرج حسين من الجو المكتوم المفعم بالأدخنة والضجيج ، وانطلق إلى الطريق . فوقه سماء القاهرة تكاد الروح ترشفها من فرط صفائها . تناثرت فيها نجوم لامعة وأخرى خابية ، لا يكاد النظر يستوعبها فى مواقعها ، حتى تجد الأذن أن هذه النجوم المبعثرة مختلفات الألوان ينظمها نغم حلو جميل . لكل لون منها نصيب فى إيقاعه ، ولكنه نغم خاف تشعر به الأذن ولا تتبينه ، كأنما هى أيضاً عين ترى ولا تسمع .

وبدأ حسين سيره إلى شبرا ، وهو حين يشعر بالليل يحجبه عن الأنظار ، يلذ له أن يحتضن أفكاره ، ويختلى بها ، فيسرح ذهنه ، وتعود إليه ذكريات قديمة . عيناه تتكلمان تارة بالسرور وتارة بالحزن . ويهتز رأسه مرة بالعجب ومرة بالحسرة . وقد

تمتم باسماً . وقد تحدث شفتاه هذه « المصة » الضئيلة التى يعبر بها المصريون عن بعض ما فى قلوبهم من توجع وعطف ورثاء ... آه ! إنه الليلة آسف على حياته، نادم من جديد . أما يأتى اليوم الذى يتاح له فيه أن ينسى كيف ألقى بنفسه فى مدرسة المعلمين وهو كاره لها ؟ وكيف نكص عن الزواج بجارته آمال ! تلك الفتاة التى خلبت لبه وسحرته ، ورضى بالزواج من إحسان.. خشى الأولى لأنها مستبدة لعوب فاتنة ، وقنع بالثانية لا عن حب ، بل قياماً بواجب ، فهى ابنة عمه . . . اطمأن لها لأنها ربة بيت ، هادئة ، معتكفة . فماذا فعلت بنفسك يا حسين ؟ أدرت ظهرك للنشوة والمتعة ، واللذة المتجددة ، والحياة المليئة بالعواطف ، وآثرت حياة راكدة كالمستنقع . سرعان ما مل إحسان ، وسرعان ما انقلبت هذه الفتاة الممشوقة القد إلى امرأة بدينة خشنة اليدين . لم يرها مرة تستقبله عند عودته ، وقد سرّحت شعرها أو اعتنت بزينتها . تبدو له الآن حياته سلسلة من أخطاء وسوء حظ . إن كان فى الحياة مهنة يمقتها أشد المقت فهى مهنة التدريس . هو عامل فرض عليه أن يبنى الأساس ولا يتعداه ، ثم يجىء آخرون يتممون البناء ويتمتعون

به ... أى لذة فى عمل لا تتجسم أمامك نتائجه ، فتمنح النفس جزاءها من الرضا والغبطة ! ؟

ما فائدة التوفر على تعهد الفرخ وتغذيته ، حتى إذا نما ريشه أفلت من يدك وطار ؟ العالم كله يتحرك إلى الأمام ، والمدرس ثابت فى مكانه ! وإن تلفت فإلى الماضى يتلفت . . . ما فائدة تعليم هؤلاء الصبية ، وهو واثق بعجزه عن إسعادهم ؟ فالحياة مليئة بالشراك والمصائد ، محفوفة بالمظالم والآلام والأحزان . سيخوضون غمار معركة من أشد المعارك تطاحناً وهولا ، على حين أنه لم يسلحهم إلا بقشور من العلوم النظرية ، وشقشقة لسان إن لم تكن تضر فهى لا تنفع . كم كان يود أن يكون محامياً . إنه يحس فى نفسه المقدرة على الفهم واستخلاص المبادئ وسلامة المنطق — وهذه مواهب لا تفيده فى صناعة التعليم ، ولكنها خليقة أن تتقدم به إلى الصفوف الأولى ، لو أنه مارس المحاماة . ودّ حسين لو أنه استطاع أن يدافع يوماً عن مظلوم ، أو يرد حقًّا إلى صاحبه . . . ولكنه عاجز . فمما يكرب نفسه أنه يرى المظالم تتزايد أمامه وتتلاحق ، ولا أمل له فى أن يرى نهايتها ، أو يرى عالماً تسوده العدالة . هذا تفسير ما فى نظرته من حزن

عميق مختلط بغيظ مكتوم . . . ماذا يفعل ؟ إنه يقف طول النهار ينبح أمام تلاميذ كالقرود يلهون ويعبثون ، حتى يجف حلقه ويضطرب قلبه . هل نسى أن الطبيب قال له إن قلبك ضعيف يخشى عليه من كثرة الإجهاد ؟

وعندئذ تريث حسين فى سيره ، ووضع يده على مكان قلبه وتأوه . . . إنه يحس كأن إبرة تغرز فيه . . . لقد ساءت حالته الليلة . إنه الإجهاد الذى يخشاه . . . فمتى تأتى الإجازة ؟ متى ؟

كان قد ترك الطريق الرئيسى وانعرج إلى درب ضيق ينتهى بالمزارع . . . سكون شامل ، ومنازل نائمة . . .

حدثته نفسه :

ــ لو أستطيع أن أرتد القهقرى عشر سنوات . . . عشر سنوات حسب . . . ولو ضحيت من أجل ذلك بعشر سنوات مثلها من مستقبل عمرى . . . سنةً بسنة . . .

لم يكد يسير بضع خطوات بعد هذا الخاطر ، حتى خيل إليه أنه يسمع زحيراً شديداً يتلاحق من ورائه . هل يجرى فى إثره أحد ؟ أجهد أذنيه فلم يسمع وقع أقدام . ومع ذلك استمر

هذا الزحير يسرع إليه ويدنو منه . طمأن نفسه يقول لها لعله وهم وخيال . فالليل عالم مجهول ملىء بأصوات غريبة لا نتبينها . . . ثم سار قليلا . فإذا يد تلمس كتفه ، والزحير يكاد يشق صماخ أذنيه . . . سمع حسين وقرأ أن شعر الرأس يقف عند الذعر ، ولم يكن يصدق . فى تلك اللحظة أحس كأن يداً قاسية جمعت شعره فى قبضتها وشدته شداً قويًّا يكاد يتمزق منه جلد رأسه . وشعر حسين بأن اليد التى وقعت على كتفه لوح من الثلج . فقد جمد لها قلبه ، وإن يكن جبينه قد التهب لها وتصبب عرقاً . . .

التفت حسين مذعوراً ، فوجد وراءه رجلا نحيفاً هو إلى القصر أدنى منه إلى الطول — يرتدى ثوباً أسود كثياب التشريفات ، من طراز يرجع إلى عهد غابر ، ذكر حسيناً بصورة قديمة لأحد جدوده . . . والغريب أن هذا الثوب كان فضفاضاً كأنما فُصِّل لرجل أطول منه وأشد امتلاء . . . فقد رأى حسين أمامه رقبة نحيلة تائهة فى بنيقة منشاة واسعة . . . يريد ذقنه أن يعتمد على حافتها فيشنقها فرط ارتفاعها . . . لم ير له يدين ، وخيل إليه أن الكمين فارغان ، ليس فيهما

ذراعان . حدق بنظره فى تقاطيع هذا الغريب . ورأى — أو خيل إليه أنه رأى — وجهاً إنسانياً ذا عينين وأنف وأذنين ... ولكن عجباً ! لماذا لا تستقر نظرته على هذا الوجه ؟ لم تنطبع له صورة فى ذهنه ، كأنما وجهه هوة لولبية ، أو سراديب ملتوية ، أو صورة فوتوغرافية مهزوزة . . .

أشاح حسين بوجهه من الرعب ، ومن تلك الرائحة المنتنة القاسية التى غمرت وجهه من فم هذا الغريب . وحين بدأ الرجل يكلمه ، إذا صوته صوت طفل وديع ، وإذا هذا الصوت الحنون وحده يراخى قبضة اليد التى كانت تجذب شعره فيعود إلى رقاده . . . وخامر قلبه شىء من الطمأنينة لم يدر سببها . قال له الرجل :

— لا مؤاخذة يا سى حسين . . . خشيت أن تغير فكرك قبل أن أستطيع اللحاق بك . كنت مشغولا جداً فى القصر العينى وفى مستشفى الحميات ... فأنا — كما ترى — مجهد حقاً ، ولى عمل شاق لا ينتهى . . . سمعتك تتبرع بعشر سنوات من عمرك لقاء أن تعود القهقرى عشر سنوات مثلها ، وأنا فى ضيق علم الله — ومحتاج أشد الاحتياج إلى يوم ، فكيف بعشر سنوات مرة واحدة .

ـ لا شك أنك سعيد فى حياتك . فلم أر قبلك أحداً يتعلق بالدنيا تعلقك بها . . .

ـ لا . لا . لا أريدها لنفسى ، بل لغيرى . . . دعنى أتذكر . نعم . عندى أب قارب الرحيل ،وقد قدر له أن يرى ابنه الوحيد الشاب يموت قبله . سأعطى الابن شيئاً من هبتك حتى أجنب أباه تجرع غصة الألم . وهذا الشاب لو انتقل عن هذه الدنيا لحرم أولاده من ميراث جدهم . سأعطيه سنة حتى ينتهى أجل أبيه . . . وهذا الفتى أحب فتاة غاية الحب ، سيموت قبل الزفاف ـ وليس أشهى علىّ من أن أمتعه بها ولو شهراً واحداً . فها أنت ذا ترى أن هبتك السخية تكفى لبعض هذه الأعمال الخيرية . . . لهذا أسرعت إليك . . .

خفت الأبخرة المنتنة شيئاً فشيئاً . . . واستطاع حسين أن يقارب وجه هذا الغريب . . . بل بلغ به الاطمئنان أن ضحك فى وجهه وقال :

ـ مهلا ! مهلا ! هذه هبة كما قلت ، ولكنها ـ ياعزيزى الأستاذ ـ ليست بدون مقابل . . . فهل أنت قادر على أن تردنى القهقرى عشر سنوات ؟

انتبه حسين إلى أن جواً من الطيب والرائحة الذكية تسطع من مخاطبه . . . وتمنى لو استطاع أن يقترب منه أو يضع ذراعه فى ذراعه . . .

أجابه الرجل وهو يبتسم :

ــ ألم تقرأ فى القرآن الكريم « ادعونى أستجب لكم » ؟

إننى عبد من عباد الله لا أعلم أن أحداً قد كلف بمهمة شاقة كمهمتى . . . وأنا مقبل على أدائها بإخلاص وبكل قوتى . . حرصاً على رضى مولاى . . . وأبى لحسن الظن بكرمه ومنّه . . . لم ألتمس منه طلباً من قبل . . . فلا أظن أنه يخيب رجائى لو سألته هذه المرة . . . كن واثقاً أننى أحقق لك ما ترجوه . . .

ود حسين لو أنه تردد قليلا ، أو سأله مهلة ليفكر من جديد . . ولكنه خجل من رقة محدثه ، فوجد نفسه يقول له وهو ذاهل . . .

ــ لا مانع عندى . . .

ــ يا لك من سخى شجاع . . .

وعندئذ أخرج حسين ساعته ونظر إليها فأوقفه الرجل قائلا :

ــ لا . لا . إننى لا أعرف حساب زمنكم هذا . . .

ثم التفت إلى السماء ونظر إلى النجوم وقال :

ـ سيكون بدء تنفيذ اتفاقنا فى تمام منتصف الليل .

قال له حسين :

ـ اتفقنا . . .

أجابه الرجل :

ـ هذا القول لا يكفينى . . . إننى أريد منك أن تهبنى السنوات العشر بالصيغة الشرعية . فقل معى :

« أهبك عشر سنوات من عمرى طائعاً مختاراً ، وأنا فى تمام عقلى وإرادتى ، على أن أعود القهقرى عشر سنوات مثلها » .

كرّر حسين وراءه الصيغة كلمة كلمة . . . فإذا بالرجل يربت على كتفه ويقول :

ـ « إنك أكبر المحسنين لو علمت . وليس أحد أولى منك بأن يقام له تمثال » . . . ثم ابتعد عنه ، يتحرك جسده ، ولا يرى حسين على أى قدمين يسير . . .

واستمر حسين فى طريقه وهو ثمل لا يدرى هل يغتبط بفعلته أم يندم عليها . همس لنفسه يقول : « إنك أسعد إنسان على وجه الأرض ! ستقوم برحلة لم تتسن لأحد من قبلك » .

وفجأة وقف حائراً وقال :

ـ ولكنى نسيت أن أسأله هل سأعود القهقرى عشر سنوات محتفظاً بما فىّ من تجارب وأفكار ومن خبرة ومزاج . . . ليتنى أدخلت هذا الشرط فى اتفاقنا !

عشر سنوات إلى الوراء ! سيغير حياته كلها . . . سينعم بما حرم نفسه منه . . . سيتجنب كل أخطائه . تألق وجهه وأسرعت خطواته ، وأحس أن نشوة غريبة تهز عطفيه . . . فإذا به يقف من جديد وقد ساوره شىء من القلق :

ـ ليتنى سألته كم يبقى لى من العمر بعد تبرعى بعشر سنوات ؟

كان قد وصل إلى داره وفتح باب الشقة ، فإذا رائحة المرحاض تزكم أنفه مختلطة بعفونة قشور البصل المتخلف فى صفيحة القمامة .

اعتاد حسين ، إذا عاد فى مثل هذه الساعة ، أن يجد شيئاً من الطعام على المائدة فيتناوله بارداً وهو صامت ، وزوجه نائمة لا تتحرك . . . ولكنه فى هذه المرة لم يكد يدخل حتى سمع صوت إحسان تنادى :

ـ من ؟ حسين ؟

وقامت إليه محمرةِ العينين ، مشعثة الشعر تقول :

ــ عجباً ! ما كدت تدخل حتى طار النوم من عينى ، وانتبهت مذعورة لا أدرى ماذا بى .

جلست معه على المائدة وسخنت له طعامه ، وحدثته عن بعض توافه يومها ، ومع ذلك كان كلامها ينزل برداً وسلاماً على قلبه . . . هى زوجه ، وليس فى حياتها أحد سواه . حبيسة داره ، حياتها كلها وقف عليه وعلى أولاده . كثيراً ما اشتكت وثارت وضجت ،ولكنه لم يسمعها تؤله بكلمة تجرح قلبه . . . حن لها حسين وضاحكها ، بل عرض عليها أن يسهرا معاً ويتسليا بلعب الكونكان . . . وهى لعبة الورق الوحيدة التى استطاع أن يعلمها لإحسان .

واستمر اللعب زمناً طويلا . . . وتناول حسين ورقة يربح بها الدور . . . فرفع يده مسروراً يقول :

ــ كن . . .

ولكنه لم يستطع أن يتمها (كونكان !) كان الليل قد انتصف . . . .

دخل عليه وكيل المكتب يقول :

ـ السمسار منتظر يريد أجره .

أطرق حسين برأسه ذليلا . لقد انحدرت به الحال إلى أن أطلق بعض السماسرة يتصيدون له الزبائن من على القهاوى . . . لم يبلغ إيراده فى هذا الشهر عشرين جنيهاً . وإنه والله ليخشى أن يعود إلى داره ، فقد طالبته آمال بثوب جديد لا يقدر عليه . . . من كان يظن أن فتنة هذه الفتاة ستزول سريعاً ؟ عاشرها وتمتع بقربها ، ولكنه يشعر أنه ظل طول عمره غريباً عنها . لا يدرى ما يجول برأسها . . . يريد أن يخضعها فلا تخضع ، ويأمرها فتنفلت منه طليقة . . . ثم كم تؤذيه ويؤذيها بهذه الكلمات القاسية الجارحة التى يتبادلانها كثيراً . . . ثم ــ وهنا العجب ــ يضمهما الفراش فينسيان كل شىء فى ضمة الجسد للجسد . وتعود العداوة والبغضاء فى الصباح . . . طبيعة حيوانية يتعامى الإنسان عنها ويتعالى، وهو عاجز فى قبضتها، غريق فى أحضانها. ترى أين إحسان الآن ؟ ألم يكن أولى بها ــ وهى ابنة عمه ــ من زوجها العامىّ الذى لا يحسن معاملتها ؟ ألم تكن راحته وسعادته فى الزواج منها ؟ ولكنه تكبر وخان ، وجرى إلى آمال كالأحمق . . .

وسار حسين على مهل إلى داره . . . المحاماة ؟ هى مهنة مليئة بالكذب والخداع . كم يتألم ضميره وهو يصرخ أمام القاضى بكلام يعلم من قرارة نفسه أنه كذب وتلفيق . . . كل ذلك لقاء دراهم معدودة لا تسمن ولا تغنى من جوع . . .

آه ! آه ! إنه أضاع حياته . وما فائدة جهاده فى المحاماة والناس كالوحوش الضارية والذئاب المفترسة ؟ إن اكتسى وجه الظالم بغلالة سوداء بغيضة ، فما أجدر المظلوم الأنوف بأن يرفع رأسه ويتجلى وجهه أبيض وضيئاً . . . ولكن حسين يتطلع إلى وجوه زبائنه فلا يتبين الظالم من المظلوم . . . كل منهم تنطوى نفسه على الغلّ والحقد . لا يكتفى الظالم بجبروته ، بل يهبط به جُبنه إلى الدس والكيد والتلفيق . . . وعمى المظلوم عن نبل المطالبة بحقه وثوابها ، وامتلأت نفسه سُماً . لا يرضيها استرداد الحق ، بل الانتقام بأى ثمن من الخصم — ولو ظلماً ! كم كان يود أن لو اشتغل بالتعليم ، لتكون براءة الطفولة الساذجة هى مادة عمله ، وليساهم فى بناء جيل صالح ينشأ على الأخلاق الفاضلة ، تبدأ به مصر حياة جديدة . . . وهل هناك أنبل من وقفة المعلم أمام صف من الصبيان ، يتطلعون بعيونهم المتعطشة إلى

كل حركة تصدر منه ، وكل كلمة تخرج من فمه ؟ هذا هو البناء الذى يرضى النفس . وأى مهنة أخرى تهيىء لصاحبها مثل هذه المتعة الروحية ؟ أما الآن فإنه يجاهد فى المحاماة جهاداً زائفاً مضيّعاً . . . أحقاً إنه يعمل لرد الحقوق إلى أصحابها ؟ إن صح هذا – وهو غير صحيح – فما فائدة تعمير البناء والأساس فاسد مختل ؟ إنه يحس فى نفسه القدرة على الصبر والتؤدة والتبسيط . وهذه صفات تؤخره فى المحاماة ، ولكنها خليقة أن تدفع به إلى الصفوف الأولى لو أنه مارس التعليم .

قابلته آمال غاضبة تقول :

– لا أراك إلا والليل متقدم . . . وما أظنك غبت فى هذا المكتب المبارك وهو أفرغ من فؤاد أم موسى . . . أكبر الظن أنك كنت مع صحبة السوء فى لهو وعبث .

– كيف أرضيك يا آمال ؟ ألا ترينى متعباً ؟

وضع حسين يده على قلبه وتنهد .

– إن الأزواج ليرجعون إلى البيت فيحدثون أزواجهم ويلاطفونهن ويتسلون معهن . . .

– وماذا تريدين ؟

لَوَّتْ خرطومها وتركته

سار وراءها ذليلا يقول :

– آمال ! تعالىْ. تعالىْ نلعب الكونكان معاً. فأنا مهموم أريد أن أتسلى . . .

بلغ من ضعفه بين يديها أنه لا يجسر أن يمن عليها بما يفعله لإرضائها . . . فكل خدمة منه لها يصورها خدمة منها له . . .

واستمر اللعب زمناً ، وتناول حسين ورقة يربح بها الدور . فرفع يده بها مسروراً يقول :

– كن . . .

ولكنه لم يستطع أن يتمها « كونكان »

انشق الجدار وخرج إليه منه رجل غريب ، ولكنه ليس بالغريب عنه . هو أقرب إلى القصر منه إلى الطول . مال بوجهه الذكيّ الرائحة على حسين يقول :

– يا سى حسين ! هل أنت ذاكر ؟ لقد نفذت عهدى من الاتفاق . أليس كذلك ؟

ابتسم له حسين ابتسامة ملؤها الاطمئنان والود والإخاء وقال :

– تمم حديثك ولا تخف عنى شيئاً . أكاد أفهم الآن

كل ما كان غامضاً عليّ . . .

ـ نسيت أن أخبرك فى ساعة اتفاقنا أنه لم يكن لك عندئذ من بقية العمر أكثر من تلك السنوات العشر التى تبرعت بها... فهل أنت مستعد ؟

أسبل حسين جفنيه ، وخفق قلبه ، ومال عليه وجه سمح منزعج يقول :

ـ حسين ! حسين ! ما بك ؟

ـ من أنت ؟

ـ أنا إحسان ! ألا تعرفنى ؟ لقد كنت أمامى منذ لحظة سليما معافى . فماذا بك ؟ هل يؤلمك شىء ؟ رد على ! أأدعو الطبيب ؟

ولكنه كان قد فارق الحياة ، وعلى شفتيه ابتسامة خفيفة . ووقفت أمامه إحسان ذاهلة لا تقوى على تفسير ما حدث كيف حدث ! !

القديس لا يحار

تحلّل القديس من قيود الوطن والأهل والأصدقاء، ورحل يبلغ رسالته للناس ، يبين لهم باطل الدنيا ودنس المال ، ويدعوهم إلى اللحاق به فى هجرته إلى الله وحده ، لا يملك شيئاً ولا يستقر فى مكان .

وسار وراءه نفر من أتباعه . رجال جاوزوا سن الثورة والاستهتار ، خُشُن الجلد والملبس ، إذا نزلوا بلداً سهل إيواؤهم وإطعامهم . . . وتشييعهم . ولو لم يتبعوه لظلوا أمام بيوتهم يصطلون الشمس طول النهار . ولكن من هذا الشاب الجميل الذى يسير فى مؤخرة الموكب : مديد القامة،عليه سمة النبل ، متئد الخطوة كأنه متبوع لا تابع . ما أصفى بياض يديه ورخاصة أنامله ، يشد بها حافتى مسوحه،فكأنها مشبك من الأحجار الكريمة . . . من يكون ؟ ولماذا يسير مطرق الرأس ؟

إنه النبيل « ع » الابن الأصغر لسيد مقاطعة نائية . تربى فى كنف العز وعاشر السعداء ، ولم تقع عينه على بؤس .

لما مات الأب وورث الابن الأكبر لقبه وضياعه . دعا أخاه المدلل وقال له :

— لا أريد أن أصبح مميزاً عنك فأنفرد بالخير كله ، بمقامك فى قلب أبى الكريم كان فوق مقامى ، فإن شئت عشنا معاً لك مالى ، وإن شئت اقتسمنا التركة بالتساوى .

فأطرق النبيل « ع » برأسه ، ولم يجب . غادر القصر واعتكف فى كوخ صغير أياماً طويلة ، خرج بعدها يعلن لمن حوله أن هاتفاً هتف به بين اليقظة والمنام يدعوه أن التحق بالقديس . فلما ترامى الخبر إلى الناس عدوها كبرى معجزاته ، وأكبروا فى النبيل نزوله عن الغنى والعز العريض ، واختياره التكفف وسؤال الناس كسرة الخبز فى سبيل الله .

طارت شهرة الأمير النبيل بين الناس ، وتزاحموا حول الموكب لا ليروا القديس ، فهم لا يجهلونه ، بل ليتطلعوا إلى النبيل الوسيم كيف يبدو فى ثياب الراهب . ينصرف الرجال عن الموكب وهم أرضى نفسا وأهنأ بطعامهم وشرابهم . أما الأمهات والجدات فكن يسبحن لله الذى سبقت إرادته ، فاختار هذا الوليد لحياة كلها حرمان وقسوة ، وما كان أجدر شبابه بالتمتع واللعب . أما الفتيات

فكن إذا رأين يده الناعمة الرخصة فوق المسوح الخشنة ، وتطلعن إلى وجه الشاب الذى أصبح مناله صعباً بل حراماً ، شعرن بقشعريرة تسرى فى أجسادهن ، وركعن على الأرض يتمتمن بدعواتهن، ولكن أحداً لم يفلح فى أن يرى عينيه . . . لماذا هو مطرق ؟ ولماذا يسير فى مؤخرة الموكب ، ولو شاء لكان فى أول الصفوف ؟ ليس بينه وبين القديس إلا خطوة واحدة .

وفى يوم مر القديس وحاشيته على قصر منيف ، فسأل عن صاحبه ،فقيل له إنه لثرى عظيم لا هم له إلا اكتناز المال ، ولم يسمع عنه فى يوم أنه أحسن بدرهم . فعدل القديس عن مواصلة سيره ،ودخل القصر ليهدم منه للشيطان معقلا ، ويظفر بتخليص أرواح ساكنيه . فوجد الثرىّ جالساً أمام مائدته ، تتكدس عليها الأطباق والأقداح ، عن يمينه زوجه ، وعن يساره ابنته ، وأمامه أولاده ، ومن حواليه أتباع وحشم يتطلعون لشفتيه، لعلهما تنبسان بأمر .

امتلأت الردهة بالأصوات ، ولكن الضجة لم تمنع النبيل – ولعل إطراقه ساعده على إجادة السمع – من أن ينتبه لضحكة رقيقة تحاول صاحبتها كتمانها فلا تقوى . . . هل مبعثها سرور

أو دهشة ؟ أم هى سخرية ؟ رفع رأسه فوجد ابنة الثرى تتطلع إليه بعيون ندية كلها أضواء . . . ورأى كيف تحتال حتى جاء مقعده إلى جوارها .

وتفجر القديس يلوم ، وكأن روحه ترمى بالشرر ، ثم يعظ ، فكأن قلبه يفيض بالغيث المنهمر . وسحرت بلاغته الحاضرين فتقاربت الوجوه وتشابهت السحن ، فما يميز بين السادة والخدم .

واختلت الفتاة بالنبيل ، وجرى بينهما حديث خافت :

ـ لو أنك مررت علينا من قبل ، لحطت لك هذا المسح على قدك ، فإننى أشفق عليك وأنت تتعثر فى أذياله ، وتتيه ذراعاك فى أكمامه ، فقل لى بالله عليك كيف تحتمله ؟

ـ لا يكربك الأمر ! فلست دالفاً إلى مرقص ، بل ساعياً إلى رب ينظر إلى القلوب لا إلى الأثواب .

ـ ويلى إذاً ! لقد كنت أظن الرقص عبادة ؛ فما رقصت مرة إلا شعرت أننى أقرب إلى الله منى فى أوقات الفراغ والسأم .

وهنا وجد الشاب نفسه أسير نظرة فاحصة ماكرة هازئة ، كلها عطف وفهم ، فيها بريق عين النهم وهو جائع مقبل على

أشهى أطعمة ، وأضواء لمحة الحبيبة إذا ما شفى الحبيب غلتها .

جرحه نفوذ النظرة إلى قلبه فانقبض ، ولكنه استراح ، لعلمه أنه لو شاء لكان سلطانه على الفتاة أقوى من سلطانها عليه .

فأجابها قاصداً هدايتها ، كأنه لم يغضب ولم يبال :

ــ وما بعد الرقص ؟ ألا تفكرين فى أن كل هذا سراب ، وأن هناك موسيقى غير موسيقاكم ؟ اللهم إن كلى آذان لسماع أناشيد التسابيح بحمدك ، الصاعدة من الكون ، المدوية فى الفضاء ، فأسألك اللهم أن تجعل من قسمتى سماعها !

ــ إن الله قد أغدق نعماءه على الكون ، ولم يحرم منها إنساناً له قلب وبصر . فذهابك الآن تقرع باب الله دليل على أنك عشت إلى اليوم غافلا عن جماله . وهذا ماض سيعقد لك فى مستقبلك وإن جاهدت . خذها عنى : إن الله لا يحب من عباده السائل اللحوح اللجوج ، ولا من يستعين للوصول إليه بمسبحة طولها أمتار . . . ثم مالت الفتاة على أذنه تقول :

ــ هلم اعترف أنك فهمت أنى أعلم لماذا ارتديت المسوح . أنت طموح ، مبدؤك إما الكل وإما العدم . تركت الثروة لأنها نصف ، والدنيا لأن كل لذة فيها تنقضى ، فإذا هى تقصر

عن حد تتخيله ، وتسير فى مؤخرة الصفوف لأنك لست على رأسها . ولو وقفت بين يدى الله لسألته : ما وراءك ؟ فتواضعك هو الكبرياء ، وزهدك هو غاية الطموح . إننى أعلم أنك نشأت يتيم الأم ، ولو عاشت لوجدت فى عطفها ما يرطب قلبك . وما أشبهه الآن بصخرة فى أعلى الجبل . . . ومع ذلك لم يفقد الأمل فيك . لقد اخترتك لنفسى ، فابق : انظر إلى ، وتمتع بجمالى . ستعلمك قوة حبى كيف تؤمن أولا بإنسانيتك ، ليصبح إيمانك بعدها بالله . إن لأبى جماعة من مهرة الموسيقيين ، إذا وقعوا على آلاتهم أرقصوا الجماد . سأجعلهم يعزفون إذا أذن رئيسكم ، ولا أظنه يرفض ، وإلا لما كان قديساً — فماذا عليك لو خلعت المسوح وارتديت أبهى الأثواب ، فقمت إلى وانحنيت أمامى ، وتناولت يدى ، ودارت ذراعك حول وسطى ، وضممتنى إلى صدرك ، ورقصنا فتمثلت النغمة فى حركاتنا ، ثم انفلتُّ عنك وأنا أخبر بك وأنت أدرى بى . . . وسترى أنه لا يزال هناك أمل .

انهدّ كل شىء من حوله . لو أنه أطاع وسواسه لهوت يده عليها بشدها من شعرها ، ويجرها على الأرض ، ولداسها بقدميه

أو لمال عليها يغمرها بقبلاته ، ولكنه خطا خطوة ليس عنها نكوص ، ولو نكث لما صدقه من بعد ذلك أحد ، ولا صدق هو نفسه . ولقد بقى فى أذنه من كلام الفتاة لفظ (الأمل) . إنه سيظل حيث هو ، جاهداً فى طريقه ، محتملا ما لا تقوى على احتماله الجبال ، آملا أنه سيرى فى النهاية بارقة الرضا فى وجه ربه الكريم . . . ولكن الآن ! الآن ! الحياة كلها أمامه فى متناول يده . آلاف الأصوات تناديه : أقبل ! اشرب ! إننى عطشى

وكان القديس لا يزال يعظ ، ورويداً رويداً طأطأت الرؤوس على الصدور ، وتصاعدت الآهات . وانفجرت الدموع ، وركع الجميع أمام القديس ، يلثم رداءه من لم يستطع الوصول إلى يديه المرفوعتين إلى السماء .

وترك الثرىّ مائدته ، وقف يقول للقديس بصوت يغالبه البكاء :

ـ أسلمت قيادى إليك . فأنا منذ اليوم من أتباعك . سأترك القصر وما فيه من متاع وما حوله من ضياع . سأترك مخازنى ، بعتيق شرابها ، والحقل بعجيج دوابه . سأتبعك كظلك . ولن أكون وحدى ، بل سيتبعنى أيضاً كل هؤلاء : زوجى ،

وأبنائى وزوجاتهم ،وبناتى وأزواجهن ، والأصهار والأتباع . أرنا الطريق ونحن فى أثرك .

لم يحر القديس جواباً ، لم يتعقد جبينه ، فهو وضاء منير . ولم يزم شفتيه ، فابتسامته الجميلة هى هى ، ولكنه غائب عن الجمع ، نظرته تائهة ، لعله يستمع إلى وحى خفى يقول :

— لو تبعوك لخرب القصر، وبارت الأرض، ونفقت الدواب . ومن أين لك إطعامهم وإيواؤهم وإيجاد عمل لهذا الجيش العرمرم؟ هل يتكفلون الناس مثلك؟ والقديس من الواصلين الذين يستند إيمانهم على صخر لا يتزعزع ، لا يعرف الشك ولا الريبة والتهكم . لم يثر فى قرارة نفسه ولم يقل : « إذاً ما حكمة رسالتى ؟ وما قيمة المبدأ الذى خرجت أبشر به ؟ وكيف يكون الكيل كيلين والصاع صاعين؟ وإن كان ما يصح لى هو الحق . فلابد من أنه يصح للناس أجمعين » .

لم ينقص إيمان القديس ذرة ، ولم يهتز لحظة . فكيف يكون قديساً إذا بدت له المسائل كما — تبدو لبقية الناس — متناقضة مضطربة ، مضحكة مبكية ؟ لهؤلاء القديسين نظرة تشمل الكون وتفهم الأسرار . فما يبدو عجيباً هو ذات الحكمة ، وما يبدو

متناقضاً هو عين الاتساق . قال القديس بصوت كأنه يخرج من كهف عميق :

– يا بنى ! احمد الله أن هداك أنت ومن معك للحق . . . على يدىّ ! إن الطريق الذى تريد أن تسلكه وعر ، لا يقوى عليه إلا القديسون أمثالى . فامكث مكانك وأقبل على عملك . واسكن إلى زوجك ، وداعب أولادك وبناتك ، وأشرف على شؤون خدمك وحشمك ، وحقولك وضياعك ، وتمتع بأكلك وشربك ، على أن تعدنى أن تفعل الخير وتذكر الله . تمثله لنفسك فى كل لحظة ، حتى تعلم أن كل ما حولك زائل ، وأنك ملاق ربك فمحاسبك حساباً لا يضيع فيه مثقال ذرة من خير أو شر .

بدا الوجوم على وجه النبيل وكأنه لم يفهم شيئاً . فاستمر القديس يقول :

– لا تحزن . إنك ستمكث فى القصر – فى نظرك – ولكنك ستكون مع ذلك من أتباعى . ما قيمة التمسك بالذيل واقتفاء الخطوة ، فى حين أن الروح متبلد والذهن غائب ؟ ستتبعنى بروحك ، بإيمانك . . . ولك على أننى لن أنساك فى يوم . فلن يغيب عنك ندائى ، بل سأحمل شخصك فى قرارة

قلبي . سأنشئ لك ولأمثالك طريقة خاصة بكم تلتحقون بها ، فتربطني وإياكم .

وعادت الردهة إلى هرجها ومرجها ، ودبت فيها روح البهجة . ودارت الأطباق والأكواب ، وسكن الثرئ إلى زوجه ، وداعب أولاده وبناته ، ونادى كلبه الأمين فأقعى تحت قدميه .

والتفت النبيل (ع) فوجد الفتاة عن يمينه ، والقديس يهم بالانصراف عن يساره .. . ولكن هاتفاً هتف به ، فإذا هو يتمتم لنفسه : نعم ! لا تيأس من رحمة الله .

فجمع أطراف مسوحه ، وجرى إلى الجمع ، واتخذ مكانه بينهم ، لا فى آخر الصفوف هذه المرة ، بل وراء القديس كأنه يلوذ به . وتحرك الجمع يرددون وراء القديس قوله :

« اتركوا الباطل الزائل واتبعونى ! »

ووقفت الفتاة صامتة برهة ، ثم همست تقول :

— يا له من غر مسكين لم يفهم الوحى . لما نادته رحمة الله أن ابق ، فإذا به يولى عنها وينصرف !

ثم ضربت الأرض بقدمها وصفقت تقول :

— موسيقى ! رقص !

بيني وبينك . . .

كم من مرة قطعت فيها هذا الطريق معك ! ذراعك فى ذراعى ، فما شعرت أطويل طريقنا أم قصير ؟ أفى يومنا المسير أم فى غد لم يأت بعد ؟ أم هو فى ماض من العمر قد ولى وفات .

كان الطريق هو الذى يقبل الىّ . يأخذ بيدى ، ويرينى اتصاله بالأفق ، بالسماء ، بالأفلاك . . . على جانبيه دور هادئة المأوى كصدور الحاضنات ، ويمر بنا أناس كل منهم شعاع من نور الله . . .

أما الآن ، بعد اختفائك ، فهذا الطريق بعينه أقطعه وحدى فلا ينتهى . المسير سخرة ، والأفق قيد ، والسماء غطاء ، والنجوم ترمق الأرض شزراً .. . الدور سجون ، والناس أطياف ذاهلة لا تدرى ما القدر ، وإن شكتْ كفرت . . .

* * *

ما رأيت عاملا فى ترام أو فى متجر أو فى مقهى إلا سلم عليك سلام الترحيب والإعزاز ، فالحياة المتدفقة من روحك تمسح عن النفوس جميعها صدأ الألم والحزن ، وتنفض عن الوجوه رماد البؤس والشقاء .

وأنتِ ، لا تستقر نظرتك على وجه واحد ولا تتريث . . . تهبين ، وما تقدرين أى مال تنثرين ؟ أفأنت عمياء كأمك الغريزة وأبيك الحظ ؟ . . .

* * *

السينما مزدحمة وأنت لا تعبثين بأحد . المشهد مؤثر ، والناس يبكون ، وأنت ضاحكة :

ــ أأبكى من خيال ؟

يا أختاه ! لا بكيت أيضاً ، من حقيقة ما عشت ، . . .

ومن يدرى ! لعلك قد انصرفت عنى يوم اختفائك عابثة تقولين :

ــ أأبكى من خيال ؟

* * *

نقلت إلىّ أن خالتك ، أو تلك التى تزعمين أنها خالتك ،

حدثتك عنى بالأمس وقد تركتكما فى العربة :

ــ أهذا الذى تذكرين ؟ إنه ساذج . هو فى يدك كالعجين فلتهنأى به .

ما آلمنى هذا الوصف ، بل رحبت به ورضيت . صدقت نظرتك فىّ أم لم تصدق ، سيان عندى . إن الحب الذى يغمر قلبى هو كل ما أسألك عليه من أجر . فلا يهمنى تصفيق النظارة أو صفيرهم . . .

* * *

ما أظنك أحببتِ أحداً أو شيئاً حُبَّكِ الثوب الجديد . هو حب صادر من قلبك ، عائد إليه ، فأنت به قريرة العين ، سعيدة ، ناجية من سيطرة الغير . . .

على لسانى دعاء :

ــ ألا فليذلك الحب يوماً . . .

ولكن قلبى يهمس :

ــ خيّب الله مناك . . .

* * *

ماذا تظنين ؟ أحسبت يوم اختفائك أننى سآوى إلى عشنا

فأمكث أترقب ميعادك ، فإذا مضى تشاغلت بكتاب أقرأه ولا أفهم منه شيئاً ، ونظرت إلى الساعة مرة وتثاءبت أخرى . حتى إذا ما انتبهت إلى مشاغلى التى أهملتها من أجلك ، هبطت الدرج سريعاً ، وانطلقت إلى الدروب والمسالك ، واختلطت بالناس . . . أوَ يدور بخلدك أننى عندئذ أنسى كل شىء ؟ هيهات لخيالك ، مهما سكر وعربد ، أن يدرك ما فعلتُ . . . لبثت أنتظرك ساعة ، ثم ليلة ، ثم يوماً ويومين ، أسبوعاً وأسبوعين ، شهراً وشهوراً . . . وما زلت أنتظرك . وأنا أعلم أنك لن تعودى . ولكنى أخشى – إذا أنا لم انتظرك وشاء القدر أن تعودى أو أن ألقاك فى الطريق – أخشى حينئذ أن تكون لهفتى على رؤيتك قد طواها النسيان وأطفأ أوارها . ولست أريد إلا أن أقابلك مشبوب العاطفة ، واله القلب ، ظامئَ العين . فأنت لو تعلمين عزيزة علىّ ، وهيهات لى أن أبتذل قدرك عندى ... فلأتحمل الألم طول الدهر خوفاً من إساءتك فى لحظة عابرة قد تأتى وقد لا تأتى . . .

* * *

اشتريت لها الحذاء فلبسته بعض اليوم ثم خلعته :

– حذّرني الطبيب من الكعوب العالية .

وألقته عنها ميتاً في عنفوان الصبا . منعني كرهي لهذا الحذاء السخيف الذي همّ بأذاها ، من أن آسف على موته السريع . . .

* * *

أيتها الفتاة الغريرة ! كيف لم يقو مكرك على ستر سذاجتك الكامنة في نظرتك . أأنتِ ساذجة قد تعلمت المكر ، أم ماكرة قد تعلمت السذاجة؟ اكذبي ما شئت وامكري ، فليس أحب إلى قلبي من كذبك ومكرك . . .

* * *

هذا الأثاث اشتريته على عجل من أجل عشنا . ما نقبت ولا اخترت . ظل طول رفقتنا أنانيّاً أبكم . لم تحيه نظرة فاحصة من عينيك . ما سمعتك راضية عنه أو ساخطة عليه . وكنت إذا انتظرتك وفات – كالعادة – ميعادك . أتطلع إلى قطعه واحدة واحدة ، فما حنّت يوماً وأسعفت تساؤلي بجواب . حتى إذا أشرقت شمسك ، تلاشى كالظلام من حياتي .

ولكن ها قد حلّ يومك – ككل ظالم – أيها الأناني الأبكم . الآن بعد اختفائها نطقت ، بل ما عدت تطيق

السكوت . لا ينقطع تساؤلك : « أين هى ؟ » « متى تعود ؟» يكاد ينشق خشبك عيوناً جائعة تتلهف على نبسة من شفتىّ ، وتكاد تتمزق منك أذرع تتشبث بى وتستجدينى الجواب .

أيها الثرثار ! لجّ فى الكلام ما شئت . فأنا اليوم — ولم العجب ؟ — كما كنت أنت بالأمس — أبكم ! ولكن لا عليك أيها الوفى الأمين . أيحلُ لجريح أن يعبث بجريح ؟ ليس من رباط بين القلوب أقوى من العاهة المشتركة . أنا أيضاً أيها الرفيق الكريم لا أدرى أين هى ولا متى تعود ! فضم بلواك إلى بلواى لعلها بهذا عليك تهون . . .

أيها الرفيق اللقيط ! لأنت عندى الآن أعز من أطهر الأبناء .

* * *

أيتها الفتاة الغريرة . . . لم يكن لى أمل فيك ، ولا بنيت من حبك أكواخاً ولا قصوراً . لا يركن إلى الأمل إلا من قصّر يومه ، فاختلس من غده .

أما أنا فقد كان حاضرى يفيض بى ويفيض عنى .

كان ! فكل ذلك قد ولى وفات . وكأن الذى أغدق على

بالأمس – غير مسئول– يتقاضانى اليوم ثمن الإسراف بالحرمان.

وكم من محروم مظلوم ! ..

* * *

بعد أيام قلائل من لقائنا كنت قد قصصت عليك ماضىّ، وكل حادثة ساقتنى إليك . أما أنت فقد مر الحول وبعض الحول ولست أدرى عنك شيئاً . ما هممت بسؤالك ، ولا شكا قلبى من ظمأ . فليس الغموض الذى يحوطك إلا انبهار العين من نورك الوهاج . وهل لك ماض ؟ إنك لست بنت الحوادث ، بل أنت أم الحياة ! . . .

* * *

خاللتك عاماً وبعض عام ، فما سمعتك تنطقين بفكرة أو تبدين رأياً . . . ما تلوثت شفتاك بالحكمة ، ولا نضح لسانك بالفلسفة ... ما دلست الحوادث عليك معانى موهومة مزيفة ليهتز لها رأسك استعباراً . . . ما سمعتك تذكرين ولا تأملين . لا ماضى لك ولا مستقبل ، بل كنت فى كل لحظة كمال الحياة لتلك اللحظة . تنفجر منك الحياة كمنابع الأنهار ، لا يهمها أتبدد النهر أم اغتاله مستنقع . أتبخر هباء أم سار لغايته إلى البحر

البعيد . تثب الحياة الغضة من عينيك . تسيل على صدرك . تتدفق من على جسدك وأنت لا تشعرين . وكنت أنهل من معينها الصافى فأجد فيه نشوة لم أجدها من عتيق الخمور ... وأنت — لشقائى — لا تشعرين . فليس أكبر الألم أن لا يشعر الحبيب بألمك ، بل أن لا يشعر بسعادتك . . .

* * *

ما من مرة احتضنتك بين ذراعى إلا شعرت بقسوة الموت وظلمه . هذا الجسد الغض المتألق ، تتفجر منه الحياة ، يصبح يوماً ما أبخرة عفنة وعظاماً نخرة . . .

* * *

ألبستها العاملة أمام المرآة كل ما لديها من معاطف . واحداً بعد واحد ، فإذا بجمالها يطغى على التغيير والتبديل ، تبدو لها فى كل معطف فتنة جديدة . . .

وددت لو استطعت أن أشتريها لك جميعاً . . .

عادت إلى المعطف الأزرق ، وجربته مرة أخرى ، ودار جسدها أمام المرآة . وجهها ساكن ، ونظراتها ثابتة على توأمتها . . « رفقاً بجيدك يا فتاتى ! » ثم خلعته ، وعادت إلى بقية المعاطف

فلبستها كلها واحداً بعد واحد ، ثم أشارت إلى المعطف الأزرق وقالت متراخية :

– هذا !

وهكذا تشاء الصدف أن لا يتعلق ذوقك إلا بأغلاها !

– تريثى ! إذا لم يعجبك هذا المعطف فغيره كثير . تعالى أريك متاجر أخرى .

لمسته بطرف إصبعها وقالت :

– أقضى به هذا الموسم ، وفى العام القادم أشترى غيره . . .

كم وددت لو أنك قلت : « تشترى لى أنت غيره ... »

دعوت الله أن يقسم لى شراءه ، كما يدعو السقيم ربه أن يمن عليه بالشفاء . . .

* * *

كنت معك فى أحضان الرذيلة من أتقى الناس ، لا تذوق شفتاى الخمر ، وما بينى وبين الله عامر . . .

أما الآن ، بعد اختفائك ، فقد سكنت إلى الخمر ، لا لأنساك ، بل لأقوى على جر الماضى إلى الحاضر . لأعيش معك من جديد . فأنا اليوم سكير صالح مطرود من رحمة الله . .

* * *

لقيتك ذات يوم ، على غير ميعاد ، فى منعطف طريق . أغلب الظن أنك تسكنين قريباً منه ، وأنك خرجت عجلى لأمر . كنت عاطلة من الزينة ، غير مسرحة الشعر ، مهملة الملابس . على كتفيك معطف لعله معطف أخيك ، وفى يدك حقيبة لعلها حقيبة خالتك . كنت لا تشعرين بنظراتى تعانقك من بعيد ،وأنا واقف أتردد بين لذة اللقاء وراحة التشفى ... هذه التى أسرتنى مضاعة بين الناس لا يشعر بها أحد . ملكة نزعت عن عرشها ! هذا هو الطير المحلق يهبط على الأرض . أين جمال جناحيه وهو صافٌّ فى السماء ، من مهزلة اضطرابه وهو يحجل ويقفز ؟ !

ولما ذهبت إلى عشنا ، كنت أهدأ نفساً . حسبتنى أشد قوة على التخلص من سيطرتك ، ولكنك ما كدت تجتازين الباب حتى هتف قلبى : « هى والله »؟ !

كونى ما شئت ، ليمسخ الإهمال صورتك ، ليقس الضنا على محياك ، بل فليشوهك الزمن الذى لا يرحم ، فأنت أنت عندى . لأنت آخر علمى وذوقى ومنتهى تجربتى . لقد كملت

بك حياتى وتم وجودى ، ولن أزيد بعدك شيئاً . حتى خيانتك لم يزدد بها علمى . هى تجربة أصبحت بعدها أكثر فهماً لألم الخلق ، وأشد سخرية من ألم الخلق . فهذا العطف الذى أبذله باليمين ، تسترده سخريتى باليسار . . .

* * *

ولكن صبراً ! سيأتى اليوم الذى أنساك فيه . . . حين يشيب شعرى وتتساقط أسنانى ، وتنطفئ عيونى . حين يحتضننى الفراش فلا أقوى على التخلص من ضمته ، وأستسلم إليه مضطراً وأستريح . حين أفلح أخيراً فى جر رجلى جراً لأبحث عن الشمس ، محدقاً فى الناس ، وهم حولى ، تحديق المشنوق فى جلاديه . حين لا أستطيع أن أرى شيئاً ، إذ يكون شبح الموت واقفاً أمامى ، أعد أنفاسه قبل أن يعد هو أنفاسى . . .

عندئذ سأنساك ! فليس أقوى من ذكراك عندى سوى الموت . . .

ولكن ، ألا من يخبرنى عندئذ كيف أمسيت ؟ وكيف مرّت عليك السنون ؟ . . .

* * *

هذه المخلوقات المنتشرة فى الطريق ، هاربة من الدور تارة ، هاربة إليها مرة أخرى . . .

هذه الحثالة المتوسدة أرصفة المسالك . . .

هؤلاء الباعة الجوالون فى الزحام، بعيدين بأنفسهم عن الزحام كالأرواح الضالة . . .

كلهم ينطق بالقدم والدوام . ما حلول جيل منهم محل جيل إلا كالثعبان يبدل جلداً بجلد . . .

هكذا كنت أراهم . . . أما بعدك فهم لدى الآن سياح يهبطون بلداً غريباً . وجوههم بلهاء فى جهلها ، نظرتهم تائهة لا تستقر ، ولا تقوى أرواحهم المهاجرة أن تقول عن شىء : « هذا لى ! »

كل هذا لأنهم لم يسعدوا يا حبيبتى برؤياك . . .

* *

عندما كنت أخرج معك فى هدأة الليل ، كنت أشعر أننا وحدنا فى هذا العالم ! تناسينا الأفلاك والنجوم ، نسينا الليل، نسينا الناس .

وكان فى نسياننا أكبر اللذة والسعادة .

أما اليوم . بعد اختفائك، فأسير والأفلاك والنجوم لم تتغير ، والليل مغمض الطرف ، والناس هم هم . . .

فأجد فى نسيانها أكبر الألم والعذاب . . .

* * *

ألف ألف فتاة مثلك عاشت . فلمعت عيناها لمعان عينيك ، وافترت شفتاها عن مثل بارق ثغرك ، ثم طواهن الموت واندثرن فى التراب . قبلة واحدة منك لى كانت تكفى لبعث هؤلاء الموتى الجائعات للحب بعد طول الرقاد . . . فى قبلتك لهيب ألف ألف ثغر ظامئ . . . أصبحت من أجلك أحب الموتى مثل حبى للأحياء . . .

* * *

وأغرب ما أعجب له أننى لا أسأل عن سبب اختفائك . وهل يستطيع من عاش معك معدوم المنطق . أن يعود فيتفهم العلل والأسباب ؟ سأسأل عن السبب حينما يهدأ قلبى . . . إذاً فلن أسأل ما حييت . وإذا مات العالم معتزاً بعلمه — فسأموت أنا معتزاً بجهلى . . .

* * *

قرأت بحثاً كتبه شيخ من شيوخ الدين يعتمد فيه على المنطق العقلى ، ليثبت أن الإنسان مسيّر لا مخير ... فما اقتنعت وما فهمت أوله من آخره . . .

وتجيئين أنت ، أيتها الفتاة الغريرة ، فتكفينى نظرة واحدة من عينيك لأومن بالقدر وبالجبر . . . لأننى ألغيت معك منطق وعقلى . وقنعت بالروح فآمنت .

* * *

لجأت إلى الكتب المقدسة الطاهرة أستنبئها : أيجيب الرحمن دعوة العاصى ؟ فإنى أريد إذا ما وقفت بين يدى الديّان أن أسأله ، قبل أن يغفر لى ذنوبى ، أن يغفر لك ذنبك . . .

* * *

العالم مضطرب ، والمدافع تقصف ، والدماء تسيل . الدور تخربت ، والنساء ترملت ، والأرض أمنا العجوز فى اللهيب... فماذا يكون شقائى باختفائك مع كل هذه الآلام ؟ أأصرخ ليخرب العالم ما دمت أنا غير سعيد؟ لا ، وألف مرة لا ، بل أدعو الله أن يعيد السلام حتى تنعمى يا حبيبتى أنى كنت بشبابك فى ظلاله ، وإن حرمنى هذا السلام لذتى الأخيرة .. لذة التشفى !

فى المساء أقول : الفرار الفرار يا نفس . عبثا حاولت الاستقرار والاطمئنان للخلوّ والعدم . من يلومك بعد أن ذقت معها طعم الوجود؟ عودى . ارجعى أيتها النفس الفطيم إلى ظلامك وأوهامك ، فلست والله تدرين بعد اليوم ، إذ تطوف بك أشباح السعادة : أهى ذكريات الماضى أم آمال المستقبل ؟

وفى الصباح أنتفض على بسمة الفجر ونشوة الطير — أسمعها تقول : « أنت يا هذا الذى سعدت بالحب . قم ! إنما العيد لك ! » مهلا أيها الطير ! إنك تعيش ملء لحظتك للحظتك ، بيد أن نفسى تتوقع عند الصباح قدوم المساء . . .

* * *

ودعت القاهرة عهد السلام ، فأطفأت أنوارها ، وفاضت كالقدح أترعته يد مرتعشة لسكير زائغ البصر . . . واكتظت طرقاتها بأغراب ومهاجرين ونازحين من ملل ونحل شتى ، لم يبق موضع لقدم فى ترام ، أو فى سيارة ، أو فى ملهى . رأيت الكثيرين فى هذا الزحام كالأسرى ، على وجوههم علامات التأفف والكرب والاختناق ، يودون الخلاص . فلا شىء يضيق به الإنسان ضيقه بقرب أخيه الإنسان . . . أما أنت فكنتِ فى الزحام كالسمكة

فى الماء، تطبق عليك الجموع ، ثم تنكشف وتطبق ، وأنت ناعمة البال قريرة العين ، بل كنت أجمل ما تكونين وأنت رافعة الرأس فى الزحام ، تتلاطم أمواج البشر حول منارتك . ما سمعتك تشكين أو تتأففين . . . ما زاد تلفتك ولا ضجرت نظرتك ؛ بل كنت مرحة كأنك فى مهرجان ... وكما رأيتك سعيدة بالحياة رأيت الحياة سعيدة بك . . .

* * *

يوم أن خرجنا من متجر الأزياء قبيل الغروب وأنت تقولين :

ــ . . . أعجبنى الثوب لولا أزراره . . .

ودوت صفارة الإنذار ، وهاج الخلق وماج . هل تذكرين كيف رأينا لابسى الجلابيب والحفاة هازئين ، والموسرين هاربين؟ رأينا شباباً فى شرخ الصبا غير عابئين ، وشيوخاً على حافة القبر زايلهم كساحهم فهم يجرون إلى المخابئ نشطين . . .

وقفتِ مكانك وتلفتِ يمنة ويسرة ، ثم قلت :

ــ أنا خائفة !

أخذتك إلى أول بناء لقيناه ، وجلسنا مع بوابه النوبى كأن ثلاثتنا من أسرة واحدة لم تفترق طول الحياة . . .

ولما ضجت السماء بأزيز الطائرات ، واشتعلت بلهيب المدافع وانفجار القنابل ... ولما اهتزت النوافذ والأبواب ، وعلا الصراخ. امتقع لونك ، وعرقت يدك ، وطال صمتك . . .

ثم هتفت الصفارة بالأمان ، فقمت واقفة ، ووضعت ذراعك فى ذراعى وخرجنا ، وكان أول حديثك :

— . . . لأن طرف الزرّ الأوسط على الكم اليمين شبه مخدوش . . .

* * *

تنقلت بعدك بين نساء كثيرات . لم أزد مع كل منهن عن لقاء واحد ، وفيهن من هى أجمل منك وأشد سحراً ، ثم أفر ولا أعود . لماذا ؟ أللحسرة ؟ لا . فأنا أعلم أن اختفاءك قد أذابك فى يمّ الحياة ، وهيهات أن تعودى ، ولو عدتِ لعدت غير ما كنت . . . أللغيرة ؟ هل تخشى روحى أن تكون كل امرأة جديدة بين ذراعى رجلاً جديداً أنت إذ ذاك بين ذراعيه ؟ قد يكون هذا ، ولكن هل لى أن أصارحك؟ أننى أفر ضنًّا بنفسى على غيرك ؟ فهذا الذى تحسبينه فىّ انمحاء هو غاية الكبرياء والاعتزاز . . . هو الحب !

* * *

أحببت قبلك اثنتين : واحدة ثم أخرى. كم أقسمت صادقاً بين أيديهما أحرّ الأيمان على الوفاء والإخلاص حتى الموت . . . ثم افترقنا . . . وهدأتُ . . . ولم أعد أذكر شيئاً . . . غير أنى كنت فى غيبوبة النشوة أنادى الأولى بين ذراعى الثانية . وكم فاجأتُ شفتى تتمتمان باسم دفين وأنت بين ذراعى لا تشعرين .. فهل الذى جرى عليهما سيجرى عليك أنت أيضاً ؟ إن الزمن يلح على بالخلاص فأعصيه ، والمنطق يسخر منى فأسخر منه ، والحياة تتشبث بتلابيبى فأتملص من قبضتها وأفر . ولكن هل أقوى على مغالبة كل هؤلاء الخصوم مجتمعين ؟ سأنساك ! سأنساك ! ولكن هيهات لى أن أنسى أنى نسيتك . . .

* * *

الآن بعد احتفائك ، أقول وأنا وَجل : هل أحببتها لأنها ذكرتنى بمن مضى ؟ أفى نظرتك أم فى صوتك أم فى سذاجتك لقيت من خلت أنى دفنته ؟ ولكن لا ! ما فات مات . مات إلى الأبد . ولِمَ نخدع أنفسنا ؟ الذكرى إنما تجر من القبر هيكلا نخراً بالياً فى لون أغبر وكفن حائل ، أجوفَ قد نزع منه الكلام .

نومئ فلا يفهم، ونشير فلا يفطن . عدم متحجر ، قائم ونحن نضطرب وندور ، فلا نعرف إقباله من إدباره . إن بصيصاً من نور خافت ينبعث من حيّ ، كاسف جميع الشموس الغاربة ! الآن أومن أنني أحببت من سبقك، لأنهما كانتا تشبهاتك أنت . . .

* * *

يا رب ! يا أرحم الراحمين ، وسعت رحمتك حنق المهزومين ، وثورة المحرومين وقد تاهوا فى ملكوتك . ما أجهلهم وإن كانوا مؤمنين !

وسعت رحمتك من أضلته بصيرته ، فجحد ، وأنكر ، وكفر كفر الأعمى بالنور . . .

وسعت رحمتك من ركبه الجهل ، وساقته الحماقة فتعالى وأبى السجود ، آنفاً من أن يرسف فيما توهم من قيود .

بل وسعت رحمتك من أغدقت عليه من نعمائك ، فجدف وتمرد . . .

لا أقول بمثل قولهم : لماذا خلقت الشر ؟ لماذا برأت الرذيلة ؟ ولكنى أسألك يا إلهى : لماذا جعلت الحق على النفس ثقيلا ، والباطل هيناً ؟ لماذا خلقت الفضيلة مملة والرذيلة فاتنة ؟

لماذا خلقت الحب روحاً هائمة لا تخضع لعرف أو لقانون : طيراً لا يحط إلا ليحوم ؟ يفزّعه الأمن والسلم والدوام ، والحياة عنده وجد وولهٍ وهيام ؟

لا يستقر ولا يهدأ ، لا تزيده العبرة إلا استهتاراً ، ولا النصيحة إلا عناداً . . . لم جعلت السعادة سراباً ، والوفاء محالا . والنيات مقعدة ، والنسيان عدّاءً !

أنت مطلع على الضمائر والقلوب ، فاعف اللهم عمن تثاقلت قدماه فى الطريق السوى ، فلم يقو على اللحاق بالقافلة تتفصّد عرقاً ومللاً . . . وانحرف إلى البيداء ضالاً يناجى النجوم ، وكل زاده نجواه لنفسه :

ــ ما ظنُّك بالله العلى القدير ، الرؤوف الكريم !

* * *

أجوس بعدك خلال القاهرة ، فأعود من أحيائها الأوربية بقلب فاتر كليل ، وطعم بين المر والحلو ، كفقير يرتد عن زيارة ابنه الغنى العاقّ ، وإن عز على قلب أبيه . . . يضيع منى شبحك فى الأوبرا وجروبى ، وبين شبرد والكونتننتال ، فإذا قادتنى قدماى إلى سيدنا الحسين ، ومررت تحت البوابات الهرمة ،

وقفت أمام الجوامع العتيقة ، هصر الشوق قلبي هصراً . . .

فأنت عندى هذا التاريخ . . .

وإذا مافاض بى الحنين إليك أبكر إلى قصر النيل مترقباً جموع الفلاحات قادمات من الريف ، على رءوسهن سلل الخضر ، ثيابهن سود ، على أرجلهن الطين ، معتدلات القوام ، فى وجوههن المجهدة عيون صابرة . لا ينقطع تدافعهن ، ولا ثرثرتهن . . . عندئذ ألقاك . . . فأنت عندى هذا الوطن . . .

ويغلبنى الوله على أمرى يوم « طلوع القرافة » ، حين أتتبع بنظرى عربات الفلاحين البطيئة تحمل الأسرة كلها رجالا ونساء ، شيوخاً وأطفالا ، أمامهم « السحارة » المنحدرة من قبور الفراعنة ، يهجرون مدينة الأحياء ليستقبلوا العيد فى مدينة الأموات .

فأنت عندى هذا العيد !

* * *

الآن أذكر ، والآن فهمت . . . .

فى صباح اليوم الذى اختفيت فيه ، كنت أجول فى خان الخليلى ، فنادتنى من سجنها الزجاجى مسبحة جميلة وأشارت

إليّ أنْ خذني معك .

تناولتها بودّ ، وانعقدت بيننا منذ اللمسة الأولى أواصر صادقة وثقت أنها ستدوم . تساقط حباتها كقطرات الماء على الغدير . حديثها الخافت إليّ : عن الألفة بين القلوب فى عالم الوحدة ، عن الطمأنينة فى اللقاء المقسوم وإن طال الغياب ، عن الوجل من الفراق المحتوم رغم اللقاء . . .

عدت بها إلى عشنا ، فلم أكد أدخله حتى انقطع من حيث لا أدرى خيطها وتناثرت حباتها . أهو نذير أم شيطان يغار ؟ جثوت على الأرض ، وجمعت حباتها ، وعددتها فإذا هى تنقص حبة . دسست يدى ، ونبشت بأظافرى تحت المقاعد والسجاد ، ولكن عبثاً ! فحزنت وأسفت .

قد تسألين : أكلّ هذا العناء من أجل حبة واحدة صغيرة ، وفى يدك منها عشرات ؟

فأجيبك : هكذا مسبحتى ! لا يحيا جمالها إلا بهذه الحبة الواحدة الصغيرة . . . التائهة . !

تم طبع هذا الكتاب بالقاهرة
على مطابع دار المعارف بمصر